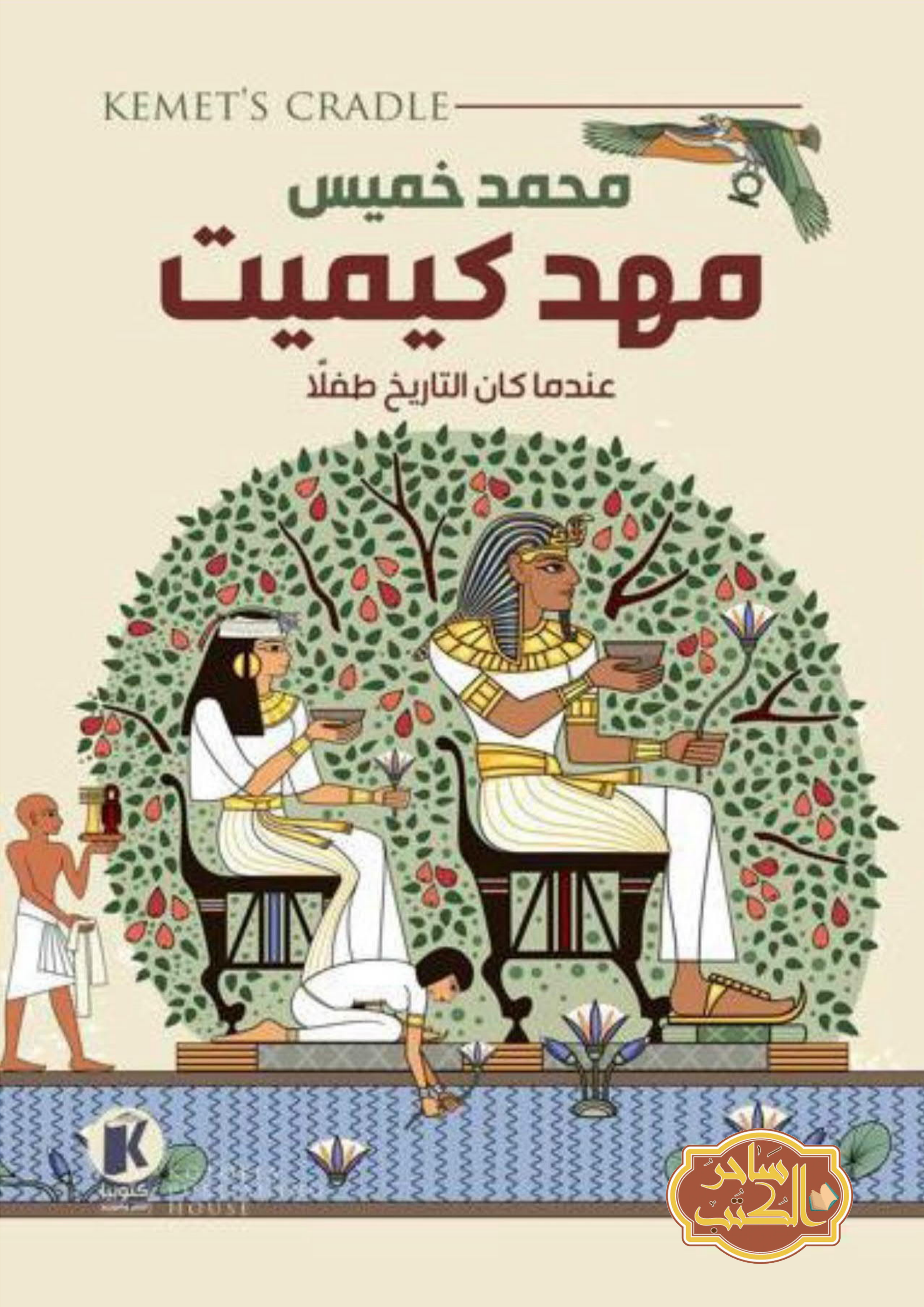

KEMET'S CRADLE
محمد خميس
مهد كيميت
عندما كان التاريخ طفلًا
ساحر الكتب

إهداء:

إليها..

لعلَّ الوهمَ يهدأُ قليلًا..

و لعلَّ المسافاتِ تستحي.

شكرًا.

لا يسعني إلا أن أشكر البعض هنا:

- هدير زهدي التي لم أكن لأخطو في هذا العالم الرحب دون ما فعلَتْه، و لعلها تُمنَح البركة و صفاء الروح دائمًا.

- رفاقي في مبادرة #مصر_جميلة، و الذين آمنوا، و دعموا؛ فرسَّخوا المبدأ و الفكرة، و على الرغم من خوفي إن ذكرتُ أحدهم دون الآخر أن يظن مَن لم يُذكَر أنني لا أشعر بفضل وجوده، إلا أنني أخصُّ:

- المصوِّرة ريهام ياقوت على الدعم الفني غير المشروط.

- شديدة الثقافة د. فاتن صلاح التي تسببت -دون أن تدري- في حرصي على الدقة، ومراجعة كل شيء، و جعلني ذلك آخذ خطوة للأمام.

- مي مجدي لكثرة الأسئلة التي فتحت أبواب التفكير.

و كل الرفاق لهم دور في هذا الكتاب.

- أيمن حويرة، و دار كتوبيا للنشر على إيمانهم بالفكرة.

أصحاب الفضل في تكويني الإنساني و الثقافي:

أبي -رحمه الله- موجه اللغة العربية الأزهري، بما كان له من شخصية كاسحة، و عقلية متفتحة راجحة.

- أمي -أطال الله عمرها- على الدعم اللا متناهي، غير المشروط منذ نعومة الأظفار.

- د. نبيل فاروق على ما قام به من دور في البدايات من خلال طاقة الكتابة العظيمة التي امتلكها.

- د. أحمد خالد توفيق «الأستاذ و الصديق»، لعل الله يرحمه قدر ما له عندنا من محبة، و ما له علينا من أفضال.. قدر افتقادنا لوجوده، و وجعنا الذي لا يهدأ عليه.

أصدقاء القلم، و القراءة، و الروح:

- د. هيثم الكفراوي، مجموعة ورشة الشعر بالإسكندرية، أحمد عبد المجيد، و رفاق منتدى خيال.

- أولجا جانكـڤيتش.

- و الآن.. أترككم مع صفحات الكتاب، و أتمنى ألا أكون

ضيفًا ثقيلًا عليكم.

ما قبل الكتاب

عن واو العطف والمعطوف

قبل أن أبدأ معكم هذا الكتاب -آملا ألا يصيبكم بالضجر- فإني أود أنا أشارككم نهجا انتهجته على مستوى الكتابة، يغاير ما تم العارف عليه، و ذلك فيما يتعلق بواو العطف، و علاقتها بالمعطوف. فقد شاع أن تُكتب واو العطف ملتصقة بالمعطوف، و هو ما أختلف معه، لماذا؟ لأن الأصل في الكتابة أن تتطور في اتجاه تفادي اللبس في المعنى، و باب اللبس يُفتح عند لصق واو العطف بالمعطوف، فلو قلنا: "ورد" فهل نعني: "ورد" بمعنى "أزهار"؟ أم نعني و+رد = و أجاب؟

و هو لبس لا ينجينا منه إلا الالتجاء للتشكيل، على الرغم من أن تفاديه شديد السهولة، إذا فصلنا بين واو العطف و المعطوف، فلا مجال للبس في: "و رد".

أما القول بأن الحروف إذا جاءت كأداة، و هي حروف مفردة، مثل: كاف الجر، و باء الجر، و فاء العطف، و ما شابههم، وجب لصقها بمعمولها (المعطوف أو المجرور، حسب الحرف) فهو قول مردود عليه، فالحرف -اصطلاحا- نوعان:

- حرف لغوي، كما في الأبجدية.

- و الحرف كأداة، مثل: أدوات الجر، و النصب، و التحقيق، و خلافه.

أمَّا الحرف اللغوي، فكتابته معروفة، و أم؟ا الحرف كأداة، فالأصل فيه أن ينفصل عن معموله (الكلمة التي يؤثر عليها الحرف) فلا نصل بين "مِن"، و مجرورها، و لا نصل بين "لن"، و فعلها المنصوب. أما حين يتفق أن يكون الحرف اللغوي هو الأداة، كحالات باء الجر، و كاف الجر، و فاء العطف... فقد اتصلت بمعمولها؛ لأنها لا تستقيم بمفردها؛ إذ إن طبيعتها أن تتصل بحرف بعدها
و ما دامت طبيعة الواو تساعدها على أن تستقيم مستقلة بذاتها؛ حيث إنها لا تتصل بما بعدها في الأساس، أليس من الأولى أن نفصلها عن معمولها إذن؟ تفاديا للبس، و تماشيا مع كونها أداة، و ليست مجرد حرف لغوي.

و حتى لو كان الشائع الوصل، فإن الأصل في الكتابة أن تتطور نحو تفادي لبس المعنى، فاللغة العربية -مثلا- عند كتابة القرآن في جمعه الأول، كانت غير منقوطة، غير مشكَّلة، غير مهموزة، و كان الخط الكوفي هو الخط الوحيد، و لكن مع الوقت، و تفاديا للبس المعنى اخترع "أبو الأسود الدؤلي" النقط السوداء للتفرقة بين الحروف، و النقط الحمراء للتشكيل، فحدث لبس بين النقط و بعضها، فغير

"الخليل بن أحمد الفراهيدي" التشكيل من النقط للشرطة المائلة أعلى الحرف؛ تعبيرا عن الفتحة، و الواو الصغيرة أعلى الحرف؛ تعبيرًا عن الضمة، و الياء الصغيرة تحت الحرف؛ تعبيرًا عن الكسرة، كما اخترع الهمزة -و لم تكن موجودة قبله- و جعل رسمها عينا صغيرة؛ لتقارب مخرجي النطق بينهما.

ثم طور "نصر بن عاصم" و "يحيى بن يعمر" التشكيل لشكله المعروف حاليا. كل هذا سعيا نحو تفادي اللبس. و قد قدم لنا العصر الحديث تطورا آخر مع التكنولوجيا الحديثة، حين منحتنا لوحات المفاتيح للحاسبات الآلية الفرصة للتفريق بين الياء المتطرفة في الاسم المنقوص، و الألف اللينة المتطرفة في الاسم المقصور، و الأصل أن رسم كتابتهما واحد، بلا نقط. و لكن؛ لأن التكنولوجيا سهلت علينا التفريق بنقطتي الياء، تم الأخذ بهذا التفريق، حتى أصبح من لا يفعله واقعا في خطأ إملائي، و هو مما نتفق معه.

أما من ينكر هذه التغييرات و التي تسعى نحو سلاسة أكثر في القراءة، و نحو تفادٍ أكثر للبس في المعنى، فالأولى به أن يتفادي كل تطور اللغة، و يبدأ بالكتابة مستخدما الخط الكوفي غير المنقوط، غير المهموز.

أمّا عني، فأكتب -عامدا- واو العطف منفصلة عن المعطوف؛

سعيا نحو فهم أسرع، و سلاسة أكبر في القراءة.

و الآن أترككم للكتاب.

محمد خميس

لنتحدثْ

كان الجبل الرابع الذي نصل لقمته في يوم واحد.. وصلتُ للقمة و أنا ألهث.. أبتسم لحدٍّ ما.. و أتطلع للفضاء.. أستمع للصمت.. هناك أصوات طيور ما.. و لكنك تسمع جيدًا صوت الصمت أيضًا.. مَهيبًا.. هادئًا.. لطيفًا على الروح.. ثم رأيتُكِ..

لم تكن تلك الصورة الباهتة التي تظهر طوال الوقت في خلفية الأحداث كما اعتدتِ أن تظهري.. بل كدت تكونين حقيقة.. النمش الذي يغطي وجهك.. حاجبك الأيسر الذي يرتفع قليلًا.

شعرك الأشقر الذي يهتز برقة مع النسيم..

و إصبع يدك الصغير الذي سرق روحي عندما التفَّ حول إصبعي ذات يوم.. يا الله!.. غمرني العرق البارد.. أتنفس بصعوبة..خِفتُ أن أمد يدي لألمس خدك.. خفت أن يتسبب ذلك في اختفائك.. أخذت أتمتم بأشياء كثيرة.. أشكو لك منك.. أتمنى -صدقًا- أن تكوني سعيدة.. كنت تبتسمين.. و كنتُ كمن نسي كيف يتنفس..

-هل أنتَ بخير؟

قالها الدليل البدوي قلِقًا.. استدرت برأسي ببطء.. عيناي لا تطاوعانني.. رأيت القلق في عينيه.. عدت أنظر لك و أنت

تبتسمين.. تميلين برأسك قليلًا.. بدأتْ صورتك تبهَت.. حتى اختفيت.

- و لكن لِمَ أنت مصرٌّ على البقاء في مصر هكذا؟

هكذا نفترق.. هكذا نبتت بيننا كلُّ هذه الآلاف من الكيلومترات.. و هكذا عاد شغفي بالتاريخ للظهور للنور.

دفنت رأسي بين الكتب من الجديد.. النسيان؟

- و من يرغب في النسيان؟

أنا لا أريد أن أنسى أيّ تفصيلة حدثت.. و لكن دعينا نفعل شيئًا معًا.. كيف و بيننا كل هذه المسافات؟

لا أدري.. دعينا نقرأ معًا.. دعيني أقص عليك ما أقرأه.. أشاركك شغفي الجديد القديم.

صغيرتي.. عندما عدت لأقرأ عن تاريخي القديم.. و عدت لرؤية ما رأيته بعين الطفولة اللا مبالية.. اندهشت..

ألغاز و حضارات

تقف الآثار التي تركتْها لنا الحضارةُ المصرية القديمة مُحيِّرةً لحد كبير.. لا تملكين أمامها إلا التعجب.

في الواقع.. إن الناظر لكل حضارات الشرق القديم.. لا يملك إلا الانبهار و الإحساس بالحيرة؛ كلها تركت لنا آثارًا ملغِزة لا يمكن فَهْم الطريقة التي صُنعت بها.

أعرف كيف كنت تقفين مشدوهة أمام أهرامات الجيزة.. و المسلّات.. و التماثيل الجرانيتية فائقة الدقة -هل تذكرين ذلك التمثال المُعجز لخفرع و حورس يحتضن رأسه من الخلف؟- و العلاقة المبهرة بين آثارها و الفلَك، لكنك ستجدين ما يثير حيرتك أيضًا عندما تفكرين في الحضارة الصينية القديمة.. أو الهندية.. أو حضارات أمريكا اللاتينية.. و بالطبع الحضارة الأخرى فائقة الإبداع.. العراقية.

و لكن ما يَعنيني الآن هو هذا الوادي شديد القدم.. بيتي.. و تاريخي.. و بلادي.. وادي النيل.

دعيني أحاول أن أقص عليك قصة.

هكذا تحدثت كيميت

«في البَدْء كان الماء..

ثم ظهرت التلَّة الأزلية المقدسة..

و عندها..

شعرت جزيئات الإله بكينونتها؛ فخلق الإلهُ نفسَه بنفسه بشكل غرائبي».

يقول »مانيتون السمنودي«:

«لم يكن إلا ماء و ضباب..

لم تكن الحياة..

لم تكن النباتات..

طبقتان متلاصقتان من المياه، بينهما فاصل فضي من النور..».

هكذا يبدأ الخلق عند أجدادي -المصريين القدماء- في واحدة من أقدم الأساطير الخاصة ببَدء العالم، و التي تبنَّتها جامعة «أون»(1)- هليوبوليس، عين شمس، المطرية- الجامعة العريقة، التي كانت في المقاطعة الثالثة عشر من مقاطعات «كيميت» -»مصر«، كما أسماها المصريون- و

التي يُعتقد أنها أقدم جامعة في تاريخ البشرية.. حتى يقال عنها: إن «طاليس»(2) و «أفلاطون»(3) تخرَّجا منها، و إن «فيثاغورث»(4) فشل في النجاح في اختبارات القبول فيها.

في الحقيقة: يبقى المُنجَز الحضاري المصري القديم شديدَ التفرد، و شديد الإلغاز و الإعجاز، و إننا عندما نتطرق إليه، فنحن نتطرق تطرُّق العاجز غير المُلِمِّ بالتفاصيل، المنبهر غير الفاهم لطبيعة القدرة الحقيقية على الفعل التي امتلكها هؤلاء القوم.

كيف وصل هؤلاء لهذا النضج الحضاري؟

ما هي البدايات التي أدت لهذه النهايات العظيمة؟

سنتحدث عن ذلك الآن.

أسمعكِ تتساءلين:

و لكن.. ما هي «كيميت»؟

كمت

«كيميت» يا عزيزتي هي «مصر»..

التي تدعونها أنتم «إيجيبت Egypt».

من أين أتى الاسم؟

حسنًا يا عزيزتي، ركزي معي فسوف نتحدث قليلًا عن الأسماء.

لقد مرت «مصر» بمراحل متعددة عبر تاريخ شديد الإيغال في القدم، و في كل مرحلة منها كان لها عدة أسماء(5):

١- الأسماء الأولى:

أطلقها عليها المصري القديم منذ أقدم العصور، حتى إنه عنَى بها -في بعض الأحيان- أجزاء لمصر، ثم أصبحت أسماء هذه الأجزاء تعني مصر كلها مع الوقت؛ فقد سبقت هذه الأسماء توحيد مصر على ما يبدو:

- «كمت»



و تعني: «الأرض السوداء»؛ أي الأرض الخصبة التي جعل الطميُ لونها أسود.

- «دشرت»

و تعني: «الأرض الحمراء»؛ أي الأرض الصحراوية المحيطة بالنيل.

- «تاوي»

و تعني «الأرضين»، و تكتب أيضا

، و هو اسم سياسي، يبدو أنه ظهر بعد توحيد القطرين، و عني بالأرضين أرض الجنوب: الوجه القبلي

تا شمعو، و أرض الشمال: الوجه البحري

تا محو، أو مصر العليا و مصر السفلى، و منه جاء لقب الملك السياسي «نسو بيتي» أي ملك مصر العليا و السفلى، و الذي بدأه الملك المصري الرابع من الأسرة الأولى، الملك العظيم «دن»، ابن العظيمة «ميريت نيت».. سنتحدث عن الألقاب الملكية، و عن هذين العظيمين بشيء من التفصيل في حينه، لا تقلقي.

- «تا مري»

و يقول «د. عبد الحليم نور الدين» -أحد أهم علماء المصريات- في كتابه «تاريخ و حضارة مصر القديمة» إنها ربما تعني الأرض المزروعة، و لكنني أعتقد أنها تعني الأرض المحبوبة.

- «إدبوي»

و تعني: «الضفتين»، حيث تعني «إدب»

: ضفة، و هي صيغة كتابة مختصرة لـ

، و يُقصد بها ضفتا النيل، و كانت الشرقية أرض الأحياء، و الغربية أرض الأموات.

لاحظي معي يا عزيزتي أننا غير مُتأكِّدين من نطق هذه الأسماء؛ فهي لم تحتوِ على حروف متحركة، و لهذا لا نعرف على وجه اليقين هل هي «كيميت» أم «كوميت» أم «كوموت»، و لكن تم التعارف على أنها «كيميت» -بسبب النطق القبطي على ما أعتقد(6)- و قد غلب استعمال المصري القديم لاسم «كمت»، و هذا منطقي؛ لِما للزراعة من

أهمية و قيمة عند المصري القديم، حتى إن «إيارو» -الجنة التي اعتقد المصري القديم أنه سيعيش فيها عندما يُبعَث بعد الموت- هي عبارة عن مزارع خضراء.
من المنطقي إذن أن يحب اسم «كمت» أكثر من «دشرت»

٢- أسماء ظهرت لاحقًا أثناء حكم الفراعنة في عهد الأسرات:

- «حت كا بتاح»

و تعني: «مَقرَّ قرين الإله بتاح»، أو فلنقل: «مقر روح الإله بتاح»، و هو اسم أحد معابد «منف»؛ حيث كان الإله «بتاح» هو معبودها الرئيسي؛ الإله الذي حمل بالعالم في قلبه، و ولده بكلمة فمه، كما يقول المنفيون في عقيدتهم. و كان ثالوث «منف» الإلهي مكونًا من «بتاح»، و زوجته «سخمت»؛ المعبودة المقاتلة العظيمة التي تحمل وجه اللبؤة، و ابنهما «نفرتوم»؛ إله الشفاء و الجمال الذي يحمل زهرة اللوتس فوق رأسه. هذا يجعلنا نعتقد أن بداية ظهور هذا الاسم كانت مع بداية الأسرة الثالثة، عندما جعل الملك «زوسر» -صاحب الهرم المدرج الشهير، و مؤسس الأسرة الثالثة- «منف» -التي بدأ بناءها «مينا نعرمر» الموحد الأول للبلاد فيما اشتُهِر-

العاصمة الرسمية للبلاد.

- «آيجيبتوس Aegyptus»

ها نحن نقترب من اسم مصر في لغتكم يا عزيزتي، لعل أقدم ظهور لهذا الاسم في القرن التاسع ق.م. تقريبا، عند «هوميروس» في الأوديسا. و يبدو أنه تحريف لـ«حت كا بتاح» ؛ بسبب عدم ارتياح اليونانيين لنطق «الحاء»، خاصة و الاسم يبدأ، و ينتهي به؛ فتحول عندهم ليصبح «آيجوبت»، ثم أضافوا له الواو و السين المميزان لليونانية، و تحول؛ ليصبح «آيجيبتوس» في النهاية، و منه اشتق اسم مصر الذي تعرفونه في لغاتكم الأوروبية الحديثة يا عزيزتي: Egypt.

و قد أطلق الإغريق اسم «آيجيبتوس» على النيل و أرض النيل أولا، ثم أصبحت تعبر عن كامل مصر.

كما أن هناك من يرى ربطا بين هذا الاسم، و الماء الأزلي «آجبي» الذي بزغت منه تلة الأرض التي ظهر عليها آلهة الخلق في بداية الزمان عند المصريين القدماء.

و هناك من يربط بين هذا الاسم و بين المعبود «جب» معبود الأرض، ابن المعبودين «تفنوت» معبودة الرطوبة و الحرارة، و «شو» معبود الهواء و الضوء، و هما ابنا الخالق

الرئيسي «أتوم» في أسطورة الخلق عند هليوبوليس، و المسماه بتاسوع هليوبوليس.

٣ - الاسم الحالي عند المصريين و العرب:

- «مصر»

و هي كلمة في اللغة العربية تعني: «قُطْر»، و تُجمع: «أمصار». و كما وجد اليونانيون صعوبة في نطق «حت كا بتاح»، لم يرتح العرب في نطق «إيجوبتي»؛ فتحولت معهم لـ«إيقوبطي»، و «قبطي»، و أشاروا بها للمصريين جميعًا، في مطلق الأمر، بغضِّ النظر عن ديانتهم، و مع الوقت أحالها المفهوم الشعبي للمصريين المسيحيين فقط، و هو ما نختلف معه. و حوْل الاسم «مصر» لغطٌ كبير؛ حيث يتحدث الموروث الديني- بلا أي دليل علمي- عن نسب ذلك الاسم لواحد من عدة شخصيات:

- «مصريم بن مركائيل بن دواييل بن غرياب بن آدم»، حيث أسماها بهذا الاسم ابنه «نقراوش» عندما نزلها، و فعل ذلك تكريمًا لوالده، و حبًّا له.

- «مصرام بن نقراوش الجبار بن مصريم».

- «مصر بن بيصر بن حام بن نوح» الذي نزلها بعد الطوفان. و هناك من يقول: بل هي منسوبة لـ«مصرايم بن حام بن

نوح»

بينما نجد ورود الاسم في العديد من اللغات القديمة، فنجده في اللغات الأكادية «مسرو» وتعني: الحدود، و في العبرية «متزرايم»، و هي كلمة مكونة من مقطعين «متزر»،و تعني: بلد أو مضيق بحري أو حدود أو حصن، و مقطع «ايم»، و يدل على المثنى، في إشارة لمصر العليا و السفلى، و في السريانية الآرامية «مسرين»، و في الأشورية و البابلية و الفينيقية مسميات متشابهة لـ«مصر» في العربية، مثل: مشرن، مسر، مسور، مسرايم.. إلخ

و من العلماء من يرجع هذا الاسم للهيروغليفية هو الآخر، و يقول باشتقاقه من «مجر» أو «مشر» بالهيروغليفية (7)، و تعني المكنون أو المحصن.

أرجو ألا يكون كل هذا الكلام قد أصابكِ بالملل يا عزيزتي، و دعينا نَعُد لما حدث في «كيميت»، و لكننا سنبدأ من الوراء قليلًا.. للوراء أكثر.. دعيني أبدأ معك بالحديث عن الإنسان القديم منذ بدايته الأولى.. جدّي الأول- إن جاز التعبير- و ربما جدك أنت أيضًا، و ننتهي للإنسان المصري القديم في حضارته الأولى.

سنبدأ الآن بالحديث عن الإنسان في أول ظهوره على الأرض.. ذلك الذي يدعونه إنسان الكهف..

الموروث الثقافي و الأسطوري و الدين و التاريخ

نصطدم بالعديد من المشاكل عندما نتعرض للحديث عن إنسان الكهف، أو بداية الوجود الإنساني. لعل أهم تلك المشاكل هو المرجعية التي نتحدث من خلالها؛ حيث تداخُل الموروث الثقافي، و الأسطوري، و الديني مع التاريخ كعلم له قواعد و أصول، مثله مثل الفيزياء و الكيمياء. العديدون يعتمدون على موروثهم الثقافي، و الأسطوري، و الديني عندما يتحدثون عن التاريخ -كما تعرفين- و هو من غير المنطقي.

لماذا؟

لأن الثقافة، و الأسطورة، و الدين هي عناصر خاصة بمن يعتقد فيهم يا صغيرتي.. بمن يعتقد فيهم فقط. الصين مثلًا: حضارة عظيمة -لا خلاف على ذلك- و فيما يتعلق ببدء العالم، لديها العديد من الأساطير لتفسير ذلك.. ربما أشهرها قصة «بان كو» الذي فقس من بيضة كونية؛ فكوَّنت القشرة من فوقه السماء، و كوَّن باقي البيضة من تحته الأرض. و استمر «بان كو» في النمو لمدة ١٨ ألف سنة، حتى وصلت السماء و الأرض لمكانهما، ثم تحطم «بان كو» لعدة قطع،

فأصبحت أطرافه الجبال، و دماؤه الأنهار، و نفَسُه الرياح، و صوتُه الرعد، و عيناه الشمس و القمر.. بينما أصبحت طفيليات جسمه الجنس البشري.. نحن براغيث الإله في هذه القصة يا عزيزتي.. لا تضحكي.. هذه ليست أسخف النظريات التي اخترعتها الشعوب.

و لكن هذا الموروث الثقافي هو موروث خاص بالصين..ليس من المنطقي أن تطالبي أحد الهنود الحمر أن يدرجه ضمن روايته للتاريخ إلا إذا كان غرضه أن يعرض الأساطير في معرض حديثه عن التاريخ، لا أن يتعامل معه على أنه حقيقة تاريخية.. أليس كذلك؟

و مثل ذلك ينطبق على أي ثقافة.. فما هو موجود في الموروث الثقافي للقبائل الجرمانية -مثلًا- لا يصلح أن يكون مرجعية تاريخية علمية عند سكان أستراليا، أو أوروبا، أو أي مكان آخر، بل في حقيقة الأمر، لا يصلح أن يكون مرجعية تاريخية علمية -حتى- عند الجرمانيين أنفسهم.

فالإنسان في بدايته رأى ظواهر خارقة، غير مفهومة بالنسبة له؛ فلجأ لخياله كي يفسرها، فجعل البرق مخالبَ للشيطان، و جعل الكرة الأرضية تقف على قرن ثور، أو يحملها عملاق ما(8)، و من غير المنطقي أن نطالب العالم أن يعتبر هذه الموروثات الثقافية حقيقة مطلقة ما لم يدعمها

العلم بقواعده الصارمة اللا مبالية. و أعرف أن كلامي القادم قد يبدو صادمًا، و لكن مثل ذلك ينطبق على الدين -مهما بلغ تقديسنا و إيماننا بالمعتقد الديني- فإنه لا زال لا يصلح للمرجعية التاريخية. ربما يبدو لك هذا الكلام إلحاديًا، و لكن دعيني أقل لك إن هذا الكلام عكس ما قد تظنين تمامًا - تعرفين طبيعتي المتدينة: ليبرالي، و لكن متدين لحد ما- و لكن محاولة التعامل مع الدين كمرجعية تاريخية هي محاولة فاسدة، تؤدي إلى الإضرار بالاثنين معًا: التاريخ.. و الدين.. كيف ذلك؟

لماذا لا يجوز أن يكون الدين مرجعية تاريخية؟

أولًا: لأن الدين يعتمد في الأساس على وجود إلهٍ كُلِّيِّ القدرة.. يطّلع على الزمان و المكان بقدرته الكلية التي لا نستطيع -بأي حال- أن نصل لكل جوانبها؛ لما له من قدرة نعجز عنها نحن البشر، بل نعجز عن فهمها، و فهم طبيعتها من الأساس. لا تُضيقي عينيك، و تنظري لي تلك النظرة يا صغيرتي، أعرف ما خطر على رأسك بعد كلامي السابق: أن هناك تناقضًا ما؛ فما دام الإله كلي القدرة، و ما دمنا مؤمنين بذلك، أليس من المنطقي إذن أن نعتبر ما تحدث عنه من الوقائع التاريخية حقائق تاريخية علمية لا خلاف عليها؟
في الواقع أن الإجابة المنطقية هي: لا!

لماذا؟

لأن هذه القدرة الكلية تجعله مُطَّلعا على غير ما نطَّلع عليه.. يجوز أن يكون كلامه عن دورة زمانية أخرى مثلًا. لا تنسَيْ يا صغيرتي أن هناك نظريات -غير مثبتة- تتحدث عن كون الزمان يتكرر بشكل دائري. نعم هي نظريات من الخيال العلمي، و لكنها تبقى احتماليات تنتظر الإثبات الذي -قد- يحدث في يوم من الأيام. أو يجوز أن يكون كلامه عن عالم موازٍ آخر يعرفه الإله -بقدرته الكلية- و لا نعرفه نحن..

أو عن زمكان آخر.. لا تنسي -أيضًا- أننا لا نعرف -بشكل قطعي- الغرض الحقيقي من سرد الإله لهذه الأحداث التاريخية..نميل لاعتقادات عن أسبابه فقط، حتى مع ذكر الإله لبعض منها -و ليس كلها- فإننا لا نستطيع القطع بغرضه الحقيقي، و الكلي. قد تكون له أغراض أخرى -إضافة للتي ذكرها- فنحن لا نطلع على مكنون ذاته، بينما هو مطلع على خفايانا؛ حيث يعلم ما بأنفسنا، و لا نعلم ما بنفسه. ناهيك عن الاختلاف الواضح بين الديانات و بعضها البعض -حتى الإبراهيمية منها- مما يجعل الدين مرجعية لمعتنقي الدين فقط لا غير. فالدين الهندوسي مثلًا هو مرجعية لمعتنقي هذا الدين، و لا يجوز أن يُطالِب هندوسيٌّ -مثلًا- شخصًا مسيحيًّا أن يعتبر ما وُجِد في الديانة الهندوسية حقيقةً مطلقةً ما لم

يوجد دليل علمي عليه. و بنفس المنطق: لا يجوز أن يفرض مسلم حقيقته الدينية، و لا مسيحي، و لا يهودي، و لا بوذي.. إلخ

كيف يضر اعتبار الدين مرجعية تاريخية بالدين إذن؟ لأن الإصرار على كونه مرجعية للتاريخ -بينما هو ليس كذلك- يتسبب في افتقاده لمصداقيته.. كيف؟ لأنه سيحتوي على أحداث، و وقائع لا يوجد عليها دليل علمي قطعي على الإطلاق.. يتسبب ذلك في قول من لا يؤمن بالدين بوجود خطأ في الدين، فلو حاولتِ أن تتحدثي مع شخص لا يؤمن بالديانات الإبراهيمية(9) -على سبيل المثال- و أخبرتِه أن هذه الديانات تتحدث عن النبي «إبراهيم»، الذي عاش في العراق، و قام بزيارة مصر، بينما هذا الشخص -غير المؤمن بالديانات الإبراهيمية- لا يجد أي دليل على وجوده لا في آثار الحضارة العراقية، و لا في آثار الحضارة المصرية، على الرغم من كونهما من أقدم حضارات العالم، و أكثرها توثيقًا.. ما الذي سيعتقده هذا الرجل في الديانات الإبراهيمية في رأيك؟ الإصرار على اعتبار الدين كمرجعية تاريخية يضر الدين بشكل واضح.

لماذا؟

لأن الدين يعتمد على الإيمان، و الإيمان يعتمد على الغيبية،

بينما يعتمد العلم على الوقائع، و الدلائل القطعية الثبوت.

الإشكالية الثانية أننا نتحدث عن أحداث شديدة القِدم، بعضها حدث «ما قبل التأريخ»، و لكن.. ما الذي نعنيه بـ«ما قبل التأريخ»؟

و لماذا يشكل الحديث عنه مشكلة؟

لكي نفهم مصطلح «ما قبل التأريخ» يجب علينا أن نعرف ما هو المقصود «التأريخ». عندما نتحدث عن «التأريخ»، فإننا نعني ما هو مُدوَّن مما حدث من قبل؛ لأن التأريخ ارتبط بشكل أساسي بالكتابة. و عليه.. يصبح توثيق ما حدث «بعد» الكتابة أكثر انضباطًا بطبيعة الحال.

و متى ظهرت الكتابة؟ لعل الكتابات الأولى للبشرية هي الكتابة التصويرية -المعتمدة على الصور- التي ظهرت في الحضارات التي قامت حول الأنهار، فنجد الكتابات الأولى تظهر في أوقات متقاربة جدًّا في حضارات: الصين.. مصر.. العراق.. و إن اشتهرت الكتابة المسمارية -الخاصة بالحضارة السومرية العراقية- بكونها الأقدم على الإطلاق؛ حيث يُرجعها العلماء لما يقرب من ٣٥٠٠ ق.م. و على الرغم من ذلك، يقول بعض علماء المصريات- يتزعمهم د. «زاهي حواس»-: إن الهيروغليفية المصرية أسبق(10)، و يعتمدون

في ذلك على اكتشافات «أبيدوس»(11)، التي أظهرت نقوشًا هيروغليفية تسبق عصر الأسرات، و ترجع لحضارة «نقادة»(12).

و لكن.. هل يعني ذلك عدم وجود حضارة، أو تكوينات حضارية، و ثقافية قبل الكتابة؟ بالطبع يوجد، و لكن توثيق هذه الحضارات يصبح أصعب، و أكثر غموضًا.

على ماذا نعتمد إذن في توثيق حضارات ما قبل الكتابة؟ نعتمد في توثيقها على ما تركت من آثار قطعية، و ما وجدناه من مكتشَفات عضوية يتم تحديد عمرها بشكل علمي من خلال العناصر المشعة، و أشهرها الكربون ١٤ المشع.

ما الذي يعنيه هذا؟

ما هي الآثار القطعية؟

بقايا أماكن سكنية، أدوات الاستخدام اليومي أو بقاياها، حفريات أو جثث مدفونة بشكل خاص يجوز تفسيره كطقس -تصل بعض طقوس الدفن أحيانًا لطقوس معقدة مثلما حدث مع المومياوات- تماثيل و آثار فنية ذات طابع محدد، نقوش بدائية تمهد لظهور اللغة.. إلخ

و لكن.. ما هو ذلك الكربون المشع؟

و لماذا، و كيف نعرف الأعمار من خلاله؟

عزيزتي.. أصبح لديك العديد من الأسئلة، هذا جيد.. أرجو أن تظلي على هذا الحماس للنهاية.

لنخرج إذن عن السياق قليلًا، و سأحاول الحديث عن الكربون المشع، و التأريخ الإشعاعي في حدود معلوماتي السطحية عن الموضوع، ثم نعود بعدها للتكوينات الحضارية السابقة للحضارات، وربما لعزيزنا رجل الكهف.

الكربون المشع، و التأريخ الإشعاعي

دعيني أوضح بشكل مبسط -قدر ما أستطيع- ما هو ذلك الكربون المشع؛ معنا العديدون ممن لم يدرسوا العلوم في المرحلة الإعدادية على ما يبدو.

يتكون أي عنصر في الطبيعة من ذرات، نعرف هذا بالطبع.

و تتكون الذرة من نواة تحتوي على بروتونات متعادلة الشحنة -لا موجبة، و لا سالبة- و بروتونات تحمل شحنة موجبة، وعليه: تصبح النواة موجبة الشحنة.

و يدور حول النواة مجموعة من الإليكترونات سالبة الشحنة، و لها جزء من حرية الحركة، و الذي يتسبب أحيانًا في فقد الذرة لبعضها.

و لكي تكون الذرة متَّزنة تسعى لتكون متعادلةَ الشحنة في الإجمال.. بمعنى أنها تسعى لأنْ تكون شحناتها السالبة متساوية مع شحناتها الموجبة، و هو ما يعني أن عدد البروتونات داخل نواة الذرة يجب أن يساوي عدد الإليكترونات التي تدور حولها.

كل عنصر له عدد ثابت من البروتونات -و بالتبعية الإليكترونات- و النيترونات، و هي أعداد مميِّزة للعنصر.

تم اعتبار عدد البروتونات داخل النواة عددًا ذريًّا للعنصر، و هو العدد المميِّز له.

و هكذا، فإن العدد الذري لأي عنصر يعتمد على تكوين ذرته، و يُنسَب لعدد البروتونات الموجبة داخل نواة الذرة، و هو نفس عدد الإلكترونات السلبية حولها.

العدد الذري للكربون الأكثر شيوعا هو ٦، و لكن له عدة نظائر تصل لخمسة عشر نظيرًا،لاحظي معي أن العديد من العناصر لها نظائر مشعة، هي ليست ظاهرة نادرة الحدوث، ولا تتعلق بالكربون وحده.

و النظائر هي أشكال مختلفة لنفس العنصر، و لكن بكتلة ذرية مختلفة.

عندما نتحدث عن الكربون مثلًا، لعل أشهر نظائره هما الكربون ١٢ و الكربون ١٣، و كلاهما نظيران مستقران - لا يسببان أي إشعاع- و لكن بعض النظائر تكون في حالة مضطربة غير مستقرة؛ فتضمحل بشكل ثابت، و ينتج عنها الإشعاع، و للكربون نظير مشع هو الكربون ١٤، و هو الذي يستخدم في التأريخ الإشعاعي.

و يرجع استخدام النظائر المشعة في التأريخ الإشعاعي؛ لأن العناصر الإشعاعية تعيش لفترات طويلة جدًّا، و وجودها

-العناصر المشعة- في الموجودات العضوية -كالأخشاب و الجلود و العظام و ما شابه- في الأماكن المكتشفة يسمح بمعرفة عمر الاكتشاف؛ لأن العناصر المشعة تضمحل بإيقاع زمني ثابت ومعروف، و بشكل غير قابل للتجديد.

و من خلال حساب الفترة المنقضية من الاضمحلال، عن طريق عملية تسمى «حساب نصف العمر» للعنصر المشع نعرف عمر الأشياء.

طريقة علمية جدًّا كما تَرين يا عزيزتي اكتشفها «ويلارد ليبي» و «جيمس أرنولد»، و رفاقهم في جامعة شيكاغو في الأربعينات من القرن العشرين.. و طبقوها على عينتين خشبيتين أُخذتا من مقبرتي كلٍّ من الملكين العظيمين: زوسر؛ صاحب الهرم المدرج الشهير في سقارة، ضمن منجزات عظيمة كثيرة أخرى سنتحدث عنها لاحقًا.

و سنفرو؛ صاحب هرمَيْ دهشور- المنحني و الأحمر- إضافة لإكماله لهرم ميدوم، و بنائه لهرم سيلا، و منجزات أخرى شديدة العظمة، و سنتحدث عنه هو الآخر لاحقًا.. لا تقلقي.

عندما طبّق «ليبي» و رفاقه طريقة التأريخ الإشعاعي باستخدام الكربون المشع على هاتين العينتين حددوا عمرهما بـ٢٨٠٠ عاما ق.م. يزيدون أو ينقصون ٢٥٠ سنة، و هو رقم دقيق لحد بعيد -مقارنة بالتخمينات العديدة التي سبقت

التأريخ الإشعاعي- و صبغته العلمية جعلته شديد الأهمية.

بطبيعة الحال، تطورت هذه الطريقة بعد «ليبي» و رفاقه، و أصبحت أكثر دقة، و بهذا الاكتشاف أصبحت هذه الطريقة هي الطريقة المعتمدة في تحديد أعمار الآثار.

تسببت هذه التجارب في تغييرات جذرية في التسلسل الزمني بالطبع -كما لك أن تتخيلي- كما حصل «ليبي» على نوبل في الكيمياء عام ١٩٦٠ بسبب هذه التجارب، و في الحقيقة أجد هذا منطقيًّا جدًّا يا عزيزتي.

لاحظي معي أنه كلما ارتفع العدد الذري للعنصر كلما أصبح نصف عمره أعلى، وكلما أفاد أكثر في التأريخ الإشعاعي.

و لكن العناصر عالية العدد الذري هي عناصر نادرة و شديدة الخطورة؛ لِما لها من قدرة إشعاعية أعلى، فالإشعاع يتسبب في العديد من المشاكل الخطرة التي تستوجب التعامل معه بحذر شديد.

لن أتحدث عن القنبلتين النوويتين التين ألقيتا على «هيروشيما»، و «ناجازاكي» في الحرب العالمية الثانية(13)، و لكن دعينا لا ننسَ ما حدث مع «ماري كوري»(14) بسبب تعرضها المستمر للإشعاع أثناء أبحاثها، التي أكسبتها جائزة نوبل الثانية لها.

و دعينا لا ننسَ أيضا خطورة التعامل مع عناصر مثل اليورانيوم، و البلوتونيوم أثناء استخدامهما في إنتاج الطاقة النووية من خلال الدمج، و الانشطار لأنوية -جمع نواة- العناصر، يُطِلّ التسرب النووي من مفاعل «تشرنوبل»(15) الروسي -الذي حدث في الثمانينات- برأسه هنا.

لهذا يبقى الكربون ١٤ المشع أكثر انتشارا، و أقل تكلفة، و أقل إحداثا للضرر الإشعاعي، و أنسب للاستخدام في التأريخ الإشعاعي.

أرجو أن يكون حديثي واضحا لك على الأقل، و أرجو أن أكون قد جعلته بسيطا قدر الإمكان.

أعرف أن العديد من الكيميائيين -و المهتمين بالكيمياء- سيجدون هذا الحديث سطحيا شديد الإخلال، و لكنها حدود قدراتي.. سامحوني على هذا.

أرجو فقط أن أكون قد استطعت إيصال الفكرة للبعض، و أرجو ألا تكوني مللتِ مني، و من حديثي يا عزيزتي.. وفِّري الملل لما هو قادم.
و الآن.. لنحاول العودة لما كنا نتحدث عنه قبل أن تستولي عليَّ عيناك ثانية، و تُلهيني عن كل شيء.. عن ماذا كنا نتحدث؟

آه.. كنا نتحدث عن التكوينات الحضارية، و كيف نعرف ما حدث قبل الكتابة.

حسنًا، هل اقتصرت هذه الآثار القطعية على هذه التكوينات الحضارية؟

في الحقيقة لا.. هذه الآثار تبدأ مع بدايات رجل الكهف.
إذن، لماذا نعتبر هذه التكوينات «حضارة»، و لا نعتبر رجل الكهف حضارة؟

أم أننا نعتبر رجل الكهف حضارة؟

في الحقيقة.. لا يمكن أن نُطلق على أي وجود إنساني أنه حضارة.

كيف نقول على وجودٍ إنسانيٍّ أنه حضارة، و لا نقول ذلك عن الآخَر إذن؟

ما هي مُحدِّدات الحضارة إذن؟

دعينا نتطرق لذلك، و لنحاول أن ننسى عينيك، و نركز قليلًا.

في الجزء الأول من موسوعته الشهيرة «قصة الحضارة»(16) يصف «ويل ديورانت» الحضارة بأنها: نظام اجتماعي يُعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي. و

يَعتبر أنها تتألف من ٤ عناصر:

- الموارد الاقتصادية،

- النظم السياسية،

- التقاليد الخلقية،

- العلوم و الفنون.

و يقول: «تبدأ من حيث ينتهي الاضطراب و القلق؛ لأن الإنسان عندما يأمن من الخوف، تتحرر في نفسه دوافع التطلع، و عوامل الإبداع و الإنشاء.» و يشترط وجود عدة عوامل تتحكم في تطور هذه العلاقة:

- چيولوچية،

- جغرافية،

- اقتصادية.

و هو حديث طويل في الواقع.

ربما كانت المُحدِّدات التي ذكرها د. ياسر شحاتة في كتابه «إعادة قراءة التاريخ» أكثر بساطة، و فعَّالة إلى حد كبير - على الرغم من بساطتها- في تعريف الحضارة:

١ - الاعتماد على الزراعة في الاقتصاد.

و هو ما يتفق مع الربط الذي ربطه ويل ديورانت بين الثقافة و الزراعة، حتى على المستوى اللُّغوي Culture & Agriculture-- لما تستدعيه الزراعة من استقرار في مكان ثابت على العكس من الصيد و الرعي.

٢ - ظهور تعداد سكاني يمكن حسابه بالآلاف.

لما يستدعيه ذلك من وجود نُظُم تُمَكِّن هذه المجموعات الضخمة -نسبيًّا- من الحياة مع بعضها البعض؛ مما يحتم ظهور النظم الإدارية و الاجتماعية و الثقافية و الفنية و نظم الدفاع، و ما شابه.

٣ - الكتابة.

لما لها من دلالة واضحة على تطور نظام ثقافي، و فني عالٍ، و لما لها من دور هام في توثيق ما يحدث.. و مع ظهور الكتابة بدأ مصطلح التأريخ.

و دعيني أوضح لك شيئًا يا صغيرتي:

نحن نتحدث هنا عن «الكتابة» لا «اللغة»؛ فاللغة تكاد تكون أسبق في الظهور من الإنسان نفسه. فالعديد من التجارب لاحظَت وجود تواصل صوتي بين الحيوانات و بعضها البعض، مثل: ملاحظات «كريج» و «ووتمان»(17) عن العلاقة بين أفعال طيور الحمام و صيحاتها، و ملاحظات

«ديبون» حول الأصوات المختلفة للحيوانات؛ حيث لاحظ ١٠ أصوات مختلفة للحمام و الدجاج، و ١٥ صوتًا مختلفًا يستعملها الكلاب، و عشرين صوتًا مختلفًا تستعملها الماشية ذات القرون.

كما استطاع «جارنر» توضيح تواصل القرود من خلال ٢٠ صوتًا على الأقل. و المعتقد أن هذه الأصوات هي البداية الأولى للكلمات الثلاثمائة التي احتاجتها القبائل البدائية لإنتاج لغتها المنطوقة البدائية. أما الكتابة، فأعتقد أنها بدأت من خلال الفن يا عزيزتي.

ذلك الفنان الذي رغب أن يرسم تفاصيل حياته على جدران الكهوف، أصبح الآن يملك مكانًا مستقرًا و بيتًا و معبدًا، تطورت حياته الاجتماعية و لغته و قدرته على التواصل، و بدلًا من نقوشه على جدران كهفه، يرغب الآن أن يكتب عما توصل له من مجد.. أن يكتب أغانيه، و علاقته بمن حوله؛ لهذا بدأت اللغات الأولى تصويرية قائمة على رسم صور تدل على الأشياء.

هكذا بدأت اللغات المسمارية السومرية، و الهيروغليفية المصرية، و الصينية -التي استمرت تصويرية حتى الآن-. هناك اعتقاد أن البدايات الأولى للكتابة واجهت اعتراضًا من رجال الدين، فيخبرنا «ويل ديورانت»(18) عن أسطورة

مصرية قديمة يحاول «تحوت» فيها أن يعلم تحتموس الكتابة، فيرفض الملك؛ اعتقادًا منه أن الكتابة ستؤثر على تعليم الأطفال الذين سيتكاسلون عن حفظ المطلوب منهم في وجود الكتابة، و لكنها تبقى اعتقادات غير قابلة للجزم، و تبقى لنا الحقائق الواضحة:

بدأت الكتابة عند حضارات الأنهار -العراق و مصر و الصين- في فترات متقاربة قبل ٣٠٠٠ عام من الميلاد -و كأن العالم تَحتَّم عليه أن يخترع الكتابة في هذه الفترة- لتظهر ثلاث كتابات تصويرية مختلفة، غير مرتبطة ببعضها تتنازع المسمارية، و الهيروغليفية فيها القدم، و على الرغم من كون الأشهر أن أقدم كتابة هي الكتابة السومرية المسمارية التي ظهرت أقدم نقوشها المكتشفة حوالي عام ٣٥٠٠ ق.م.، إلا أن الاكتشافات الجديدة المتلاحقة تجعل الجزم بالأقدم شديد الصعوبة في الواقع.(19)

و لكن، إن تحدثنا عن الكتابة بشكلها الحالي، فربما يرجع الفضل في ذلك للأبجدية الفينيقية التي تكاد تكون الأم المباشرة لكل الكتابات الحية.

حسنًا.. تحدثنا حديثًا مقتضبًا عن الحضارة و التاريخ.. ربما كان مُملًّا بعض الشيء لك يا عزيزتي، و لكن كان لا بد منه، فسامحيني.. دعينا الآن نرجع للحضارة المصرية.

هناك مقولة لـ د. «زكي نجيب محمود» -أحد مفكرينا المهمِّين في القرن العشرين- كتبها في كتاب «قصة عقل»، و التي أحبها، و أجدها حيادية لحد بعيد أيضًا، على الرغم مما قد تبدو عليها -ظاهريًّا- من شوفينية.. دعيني أقرأها لك:

«عندما كان «شكسبير» في إنجلترا يكتب مسرحياته شعرًا، لم تكن أمريكا قد وُلدت بعدُ، مع أن «شكسبير» يعدونه في تاريخ الأدب شاعرًا من العصر الحديث.

و عندما كان الشاعر الروماني «أوڤيد»يكتب شعره، لم تكن الدنيا قد عرفت شيئًا اسمه إنجلترا. و عندما كان الشاعر اليوناني «هوميروس» ينظِم ملحمته الإلياذة، كانت الأمة الرومانية كلها ما زالت في جوف العدم. أما حين كان «هوميروس» ذاك ينظِم ملحمته تلك، فقد كانت «مصر» قد أمضت من تاريخها أربعين قرنًا، تُنشئ أدبًا، و شعرًا، و ديانة.»

عزيزتي.. عندما نتحدث عن الحضارة المصرية المؤرَّخة -المكتوبة- فإننا نتحدث عن حضارة متكاملة لحد بعيد، تمتلك معرفة عظيمة بالفلك و الهندسة و الزراعة و التقويم، و تمتلك خيالًا دينيًّا متماسكًا شديد التشعُّب.

ليس من المنطقي أن نظن أن هذه الحضارة نبتت هكذا بهذه القوة دون أن يكون لها جذور، و ما دمنا لا نملك تأريخًا واضحًا لما قبلها؛ فإننا نلجأ لعلم و دراسة ما قبل التاريخ

بفرعيه العظيمين: الأنثروبولوجي و الجيولوجي، فدعينا نتطرق -بشيء من السطحية، لا تقلقي- لهذين الفرعين العظيمين.

هكذا أخبرنا الأنثروبولوچي

فاصلة،

«اقترب الليل..

الكرة الملتهبة في السماء لم تعد تلدغ جلده كما كانت منذ قليل..

ها هي تقترب من أطراف الأرض.. بينما السماء ممتلئة بالألوان الصفراء و الحمراء..

-لا تتركيني أيتها الكرة العظيمة..

هكذا غمغم، و هو يسرع الخطى..

الماء المالح لم يعد يتجمع على وجهه، و يحرق عينيه..

تلفَّت قلقًا..

سيأتي بعده بمئات الآلاف من السنين -ربما أكثر من مليون سنة- من يحاول أن يُرجع خوف البشر من الظلام في العصر الحديث لخوفه هو، الذي أورثه لهم(20).. و لكن كيف لا يخاف الظلام؟

في الظلام تنشط الوحوش، و هي تَرى في الطلام و لا يرى هو..

لو- فقط- أمتلك عينين مضيئتين كعيونها..
أسرع في العَدْو..

-لا تتركيني أيتها الكرة العظيمة.. امنحيني بعض الوقت..

أسرع أكثر..

و لكن يبدو أنه ابتعد عن كهفه بالفعل.. ربما لن يستطيع بلوغه..

فليبحث عن شجرة يقضي ظلامه فوقها إذن.. و ليبق منتبها قدر الإمكان.. فبعض هذه الوحوش تستطيع تسلق الأشجار..

فليختر غصنًا قويًا، و يحتضنه بينما ينام.. هذا إن استطاع النوم بالفعل.. يبدو أنه سيكون ظلامًا طويلًا.

لو كان يعرف التوقيت لعرف أنه مُغرِق في القِدم، ربما يرجع لمليوني عام خَلَتْ..

ربما كان هذا أحد جدودي القدامى يا عزيزتي..

و ربما كان أحد جدودك أنت..

من يعلم؟»

إنه الهومو إرجاستر.

عندما يتحدث علماء الأنثروبولوچي عن مراحل تطور الإنسان، فإنهم يتحدثون عن مراحل عديدة.. ربما كان أهمها ٥ مراحل:

١- الإنسان الشغيل Homo Ergaster .



و ذلك لقدرته على الفعل، و يُعَد البداية الأولى للإنسان.
تم اكتشاف هياكل عظمية له في كينيا و تنزانيا و إثيوبيا، و جنوب إفريقيا، و لعل أهم اكتشافاته حول بحيرة «توركانا»

الكينية(21). تم تحديد عمر أقدم هذه الاكتشافات بـ ١.٩ مليون سنة تقريبًا. و يُرجع العلماء وجود بعض الاكتشافات له في مناطق في آسيا و أوروبا لهجرات غير قطعية السبب –ستتكرر الهجرات مع كل الأجناس القادمة- يتحدث الكثيرون منهم عن احتمالية أن تكون التغيرات المناخية، و إن كنا نختلف مع ذلك(22).

طوله يقترب من الإنسان الحالي، و حجم مخه أصغر. هناك من يقول بتطوره عن كائن يدعى «هابيليس»
و لكن -مثله مثل العديد من السلالات الأخرى الشبيهة بالإنسان- هناك اختلاف بين العلماء على ذلك.

كان الإرجاستر يعيش في مجموعات من حوالي ٢٥ شخصًا، و يعتمد على الصيد، و جمْعِ الثمار، و يستخدم الأدوات التي يجدها في الطبيعة مثل الحجارة و الأشجار.

اختفى من أوروبا و آسيا بعد ٢٠٠ عام من ظهوره هناك. لاحظي معي وجود تداخل زمني عظيم بين الهوموإرجاستر و ما تلاه من أجناس، خاصة الهومو إريكتس.

٢- الإنسان المنتصب Homo Erectos.



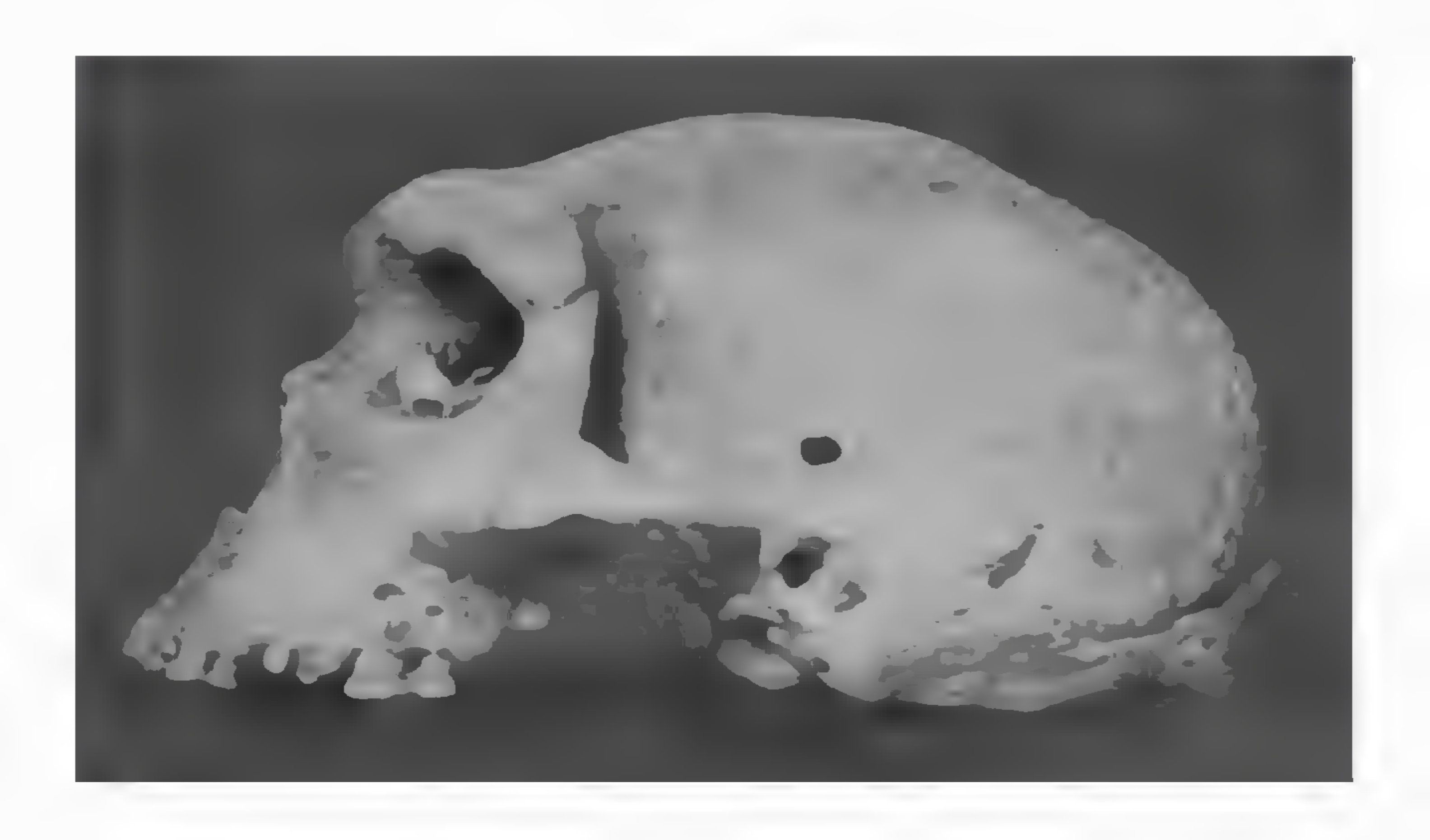
و سُمّي بذلك لانتصاب قامته.. ربما يكون قد ظهر في إفريقيا في المجموعات التي لم تهاجر لآسيا و أوروبا، و تميَّز بحجم مخ أكبر نسبيًا، و قدرة عضلية أعلى، و أدوات أكثر تطورًا، كالحِراب الحادة، و الأحجار الأكثر دقة و حدة.

من المرجح أن استخدام النار على نطاق واسع تم على يد الهومو أيريكتس(23). و هاجر هو الآخر للعديد من الأماكن الآسيوية -مثل الصين(24)و اليابان- و الأوروبية -مثل فرنسا و إسبانيا و ألمانيا-.



و هناك خلاف على كونه هو نفسه إنسان هايدلبرج أم لا، و بالطبع يطلق على إنسان هايدلبرج هذا الاسم نسبة لجامعة هايدلبرج في ألمانيا.عاش الهومو إريكتوس لفترات أطول في آسيا و أوروبا حتى اختفى من هناك هو الآخر. و يُعتقد أنه كان يمتلك المهارة التي أهلته لصناعة القوارب البسيطة و الإبحار بها.

٣- إنسان روديسيا Homo Rodisian.



نسبة لمنطقة روديسيا في جنوب إفريقيا، و هناك تشابه كبير بينه و بين إنسان هايدلبرج، و يعتبره البعض النسخة الإفريقية منه، و الأرجح أنه ظهر من الهومو إريكتس، ثم هاجر لآسيا و أوروبا هو الآخر.

٤- إنسان نايندرتال Homo Naenderthalansis.



و سمّي بهذا الاسم نسبة للعالم الألماني **Naender** مع إضافة كلمة «تال» بمعنى وادي، و ذلك لجهوده العظيمة في دراسة هذا النوع. يتميز بكبر حجم الأطراف، و القوة الجسدية، و الكبر النسبي للمخ. و كعادة سابقيه؛ هاجر بعضه لآسيا و أوروبا. و كان الاعتقاد السائد لفترات طويلة بين العلماء أن الشعوب الأوروبية تنحدر من هذا النوع.

فاصلة،

«يختبئ بين الحشائش..

ثابتًا..

مُنتبهًا..

عيناه مثبتتان عليها، بينما هي تشرب لاهية..

عندما لاحظ أن اتجاه الريح قد تغير.. تحرك بسرعة و خفة.. محاولًا قدر إمكانه ألّا يصدر أي صوت قد يلفت انتباهها؛ فيجعلها تفر..

الآن.. هو في مكان لا بأس به..

لن تنقل الريح رائحته لأنفها الآن..

حاول أن يرى المكان الذي يقف فيه أخوه..

لم يستطع..

لم يبذل مجهودًا عظيمًا في ذلك.. يثق أن أخاه يعرف جيدًا ما يفعله.. ليست أول مرة يفعلان ذلك معًا..

عليه فقط أن يكون منتبهًا للحيوانات المفترسة التي قد تكون في الجوار هي الأخرى، تتحين الفرصة للصيد مثله..

لا يريد أن يعود لعائلته بلا صيد كما حدث في المرة الأخيرة..

صحيح أن زوجته جمعت قدرًا كافيًا من النباتات..

لكن ما فائدته -هو و أخوه- في الحياة إذا اعتمدت الأسرة عليها فقط إذن؟

ظهر أخوه بشكل مفاجئ، رافعًا رمحه المصنوع من الظِّرَّان دقيق الصنع، و هو يصرخ، و يعدو نحو الغزالة التي انتبهت مفزوعة، و بدأت في العَدْو مسرعة بعيدة عن أخيه.. في المكان المعاكس.. حيث يكمن هو في انتظارها بالضبط..

لقد سارت الخطة كما خطّطا..

لقد أصبح أفضل بكثير من الإرجاستر..

أذكى، و يمتلك أدوات أفضل..

و لكنه لم يكن يفكر في هذا بالطبع..

كان كل ما يفكر فيه فرحًا:

فليشعلوا النار، و يتهيؤوا..

اليوم..

يأكلون لحم الغزال».

٥- الإنسان العاقل Homo Sapiens.

آخر تطور بشري إفريقي.

قالت أغلب الدراسات إنه ظهر منذ حوالي ٢٠٠ ألف سنة في

إثيوبيا، و لكن اكتشاف البروفيسور «جاك هوبلين»(25) و فريقه في جبل «إرحود» في المغرب لبقايا هومو سابيانس تعود لما يقرب من ٣٥٠ ألف عام خلت يجعلنا نعيد التفكير.

امتلك عقلًا متطورًا كبير الحجم، و استطاع تطوير لغة متطورة، و امتلك خيالًا مكّنه من الإبداع على جدران الكهوف.

و قد هاجرت جماعات منه -كما هو معتاد- من إفريقيا لآسيا -عن طريق سيناء، و ربما عن طريق باب المندب أيضًا- و من آسيا لأوروبا بالتبعية.. و غلب الاعتقاد بين العلماء بحدوث العديد من الصراعات بينه، و بين إنسان نايندرتال -المتفوق عليه جسديًا- و أن الغلبة انتهت للهوموسابيانس؛ لما له من قدرة عقلية أكبر.

لم تقف هجرات الهوموسابيانس عند حدود آسيا و أوروبا، بل إننا نجد في المتحف المصري في برلين خريطة توضح هجرات الهومو سابيانس، و نرى فيها أنه الإنسان الوحيد الذي هاجر للأمريكتين -لم يفعلها النايندرتال، أو الإريكتس، أو الإرجاستر أو أي إنسان سابق للهومو سابيانس- و فعل ذلك من خلال ألاسكا منذ ما يقرب من ١٠٠٠٠ عام، و ذلك طبعًا قبل الهجرات التي حدثت بعد اكتشاف «كولمبوس» للأمريكتين عن طريق الخطأ.. ماذا؟

لا تعرفين أنه عن طريق الخطأ؟

خرج «كريستوفر كولومبوس» بسفنه، و هو يقصد أن يجد طريقًا بحريًا جديدًا لـ«الهند» لا يمر بـ«مصر» و «الشام» يا عزيزتي؛ فقرر أن يدور حول الأرض في خط عرضي مستقيم،

معتقدًا أن هذا سيصل به لـ«الهند» في النهاية، و لم يكن أحد يعلم بوجود الأمريكتين من الأساس، حتى إنه ظن عندما وصلت سفنه لشاطئ الأمريكتين أنه وصل بالفعل لـ«الهند».

و حين رأى السكان الأصليين ببشرتهم الحمراء ظنهم هنودًا؛ لذلك أصبح اسمهم الهنود الحمر.. قصة طريفة أليس كذلك؟
و دعينا لا نتحدث عما فعله -هو و من جاء بعده- من جرائم لا تُصدَّق في حق هؤلاء السكان الأصليين.. ليس هذا موضوعنا على أية حال.

ظل العلماء لفترة طويلة يعتقدون أن الأوروبيين ينحدرون من إنسان نايندرتال بينما ينحدر الآسيويون من الهومو إريكتس، في حين ينحدر الأفارقة من الهومو سابيانس، و أن هجرات الهوموسابيانس لأوروبا تم التصدي لها من

النايندرتال الذي انحدرت منه أوروبا.

طبعًا صاحَب ذلك اعتقادٌ أن النايندرتال أكثر ذكاء و أكثر قدرة جسدية، فدافِعُ هذا الاعتقاد يبدو عنصريًّا إلى حد ما؛ إذ رفض الأوربيون لفترة طويلة أن يؤمنوا أنهم ينحدرون من نفس السلالة التي ينحدر منها الأفارقة و الأسيويون، و لكن سلسلة الأبحاث التي قام بها العلماء عام ١٩٩٤ على الحمض النووي للأوروبيين كشفت أنهم -مثلهم مثل الآسيويين و الأفارقة- ينحدرون من الهوموسابيانس -الذي نشأ في الأساس في إفريقيا، و ربما عُثِر على أقدم بقاياه في المغرب- و أن أحدث بقايا لإنسان نايندرتال ربما ترجع لثلاثين ألف عام مضت في البرتغال.

و هكذا تصبح إفريقيا هي أم العالم الحالي، حتى إننا نجد لافتة في المتحف المصري ببرلين تلخص تاريخ العالم الطويل هذا، و تقول بعد لغات:

«نحن جميعًا أفارقة».

هل تتخيلين ذلك يا عزيزتي؟

هكذا -و كما يقول العلم- تصبحين إفريقية أنت الأخرى يا صغيرتي.

أخيرًا تجمعنا هوية واحدة يا شقرائي الإفريقية الفاتنة..

لَغْتتي و نِغْمتي..

هكذا يجمعنا العلم بعد أن فرَّقَنَا العنادُ الذي منحنا محنته اللعينة: آلاف الكيلومترات التي تُخرج لنا لسانها طوال الوقت..

دعينا نستمتع بهذه اللحظة قليلًا أيتها الإفريقية الشقراء قبل أن نتطرق لبعض الإشكاليات.

و هكذا تظهر الإشكاليات:

فلنفكر معًا يا عزيزتي.. ألا تجدين -معي- في الحقيقة..

أن هناك إشكالية في الفصل الزمني بين الأنواع الخمسة؟

هناك العديد من الدلائل على كونهم عاشوا معًا في توقيتات متقاربة: الهومو الأرجاستر و الهومو إريكتس عاشا معًا بلا جدال، و الهومو سابيانس و النايندرتالأيضًا، بل إن هناك دلائلَ على حدوث تزاوج بين الهومو سابيانس و النايندرتال.(26)

دعينا لا ننسى أن اكتشافات الهومو سابيانس الأخيرة في المغرب تعود بـالهومو سابيانس لما يقرب من ٣٥٠ ألف سنة خلت، بينما تم اكتشاف بقايا لإنسان نايندرتال -في نفس المنطقة تقريبًا- تعود لأربعين ألف عام خلت(27)، لا شك

إذن أن هذه الأجناس من البشر عاشت معًا جنبًا إلى جنب، بل و تزاوجت من بعضها البعض، ألا يجعلنا هذا نشك -و لو لبعض الشيء- في كون هذه الأنواع متطورة عن بعضها البعض؟

ألا يمكن أن تكون هذه الأنواع قد ظهرت معًا، و أن الاختلاف بينها يرجع للتنوع الطبيعي بين أفراد جنس واحد؟

ألا نشاهد الآن اختلافات شديدة البُعد بين الأجناس البشرية بعضهم و بعض؟

بل إننا نرى هذه الاختلافات بين أفراد الجنس الواحد.
دعينا نتخيل معًا شيئًا آخر يا صغيرتي:

فلنتخيل وفاة شخص يعاني من حالة أكروميجالي Acromegaly(28) -على سبيل المثال- و بعد مائتي عام وَجد عالم متحمس من علماء الأنثرولوجي المستقبليين عظام هذا الرجل، و إذا أكملنا خيالنا، و افترضنا عدم وجود أي توثيق علمي للفترة الحالية -دعينا نحاول تقليد ظروف إنسان الكهف- ألا يجوز أن يعتقد هذا العالم بوجود نوع من البشر ذوي الفكوك العملاقة، و الأطراف الضخمة؟

لاحظي معي أنني تحدثت عن حالة مرضية، و لم أتحدث

عن الاختلاف بين قبائل البوشمن، و الرجل الذي عاش في السويد مثلًا، كما لم أتحدث عن مرض جيني مثل البله المغولي أو حالة تيرنر.

أعرف جيدًا أن أبحاث الأحماض النووية الأخيرة -التي تطورت كثيرًا في الفترة الأخيرة- تتحدث عن اختلافات بالغة الدقة بين هذه الأنواع، و لكن الأبحاث نفسها تقول إن نتائجها غير قطعية الدقة على قدر ما قرأتُ، فلو كنتِ تعرفين شيئًا لا أعرفه سأكون سعيدًا لو أخبرتِني به.

أنا لا أقطع بشيء يا عزيزتي -خاصة و أنك تعرفين جيدًا أنني لا أفقه شيئًا في الأنثروبولوجي في الحقيقة، و هو ما قد يعني أن هذه الملاحظات تنشأ عن جهل فقط لا غير- و لكنني أعتقد أنها فرضية تستحق أن توضع في الحسبان.

و الآن.. بعد هذا الكلام شديد الاختصار عن بدايات الإنسان..
سامحيني.. سأتحدث عن شيء آخر قد يبدو لك مُمِلًّا هو الآخر، و لكن للضرورة أحكام..

لنتحدث عنه من خلال المنجز الثقافي الفني للإنسان القديم..

الفن يا صغيرتي.. الفن هو مفتاح كل شيء..

فصبرًا.. تَحمَّليني قليلًا.

البولوچيا و الأنثروبولوچيا يتحدثان معًا

على المستوى الچيولوچي يقسّم العلماء الحياة على الأرض للعديد من العصور، و لكننا نهتم بشكل أخص بالعصر الحجري؛ لما له من علاقة بظهور الإنسان. و إننا عندما نتحدث عن العصر الحجري، فسنجد عصرين رئيسين:

العصر الحجري القديم Paleolithic

و ينقسم بدوره لثلاثة أقسام:

A- العصر الحجري الأدنى Lower Paleolithic.

يبدأ من ٢.٥ سنة تقريبًا، و حتى ٢٠٠ ألف سنة تقريبًا، و هي الفترة التي ظهر الهوموسابيانس في نهايتها حسب الاكتشافات الأخيرة.

B- العصر الحجري الأوسط Middle Paleolithic.

يبدأ من ٢٠٠ ألف سنة تقريبًا، و حتى ٤٠ ألف سنة تقريبًا، و هي فترة تظهر فيها بقايا لـ«لهوموسابيانس» و لـ«النايندرتال»، و إن لم يبق الآن سوى نحن، كهوموسابيانس بالطبع.

C- العصر الحجري الاعلى Upper Paleolithic.

يبدأ من ٤٠ ألف سنة تقريبًا، و حتى ١٠ آلاف سنة ق.م. تقريبًا، حين بدأت الزراعة.

٢- العصر الحجري الحديث Neolithic.

يبدأ من ١٠آلاف سنة ق.م. تقريبًا، و ينتهي ببداية الحضارات القديمة.. و تختلف هذه النهاية تبعًا للمنطقة التي نتحدث عنها.. و لعل أبعدها ٦ آلاف عام ق.م. تقريبًا في المناطق المحيطة بالأنهار في آسيا و إفريقيا.

التدوين و الفن.

لماذا نهتم بالتدوين؟

لأنه بداية التوثيق بالطبع.. و التوثيق هو ما نعتمد عليه في التأريخ.

متى بدأت محاولات الإنسان الأولى للتدوين؟
لكي نعرف ذلك لا بد لنا من العودة لأول مسكن سكنه الإنسان القديم.. الكهف.

إنسان العصر الحجري و الكهوف.

تعطينا الكهوف المكتشفة مادة علمية هامة و متنوعة..ففيها نجد بقايا الأدوات و العظام لهذا الإنسان القديم. و لعل أشهر كهوف العصر الحجري القديم: العديد

من الكهوف في إفريقيا، لعل أشهرها كهف بلومبوس Blombos في جنوب إفريقيا. العديد من الكهوف في أوروبا، لعل أشهرها كهوف: تشوفيه Chauvet و لاسكو Lascaux و نيوكس Niaux في جنوب فرنسا، و كهف ألتاميرا Altamira في شمال إسبانيا. العديد من الكهوف في الأمريكتين، ربما أشهرها كهف الأيدي في بتاجونيا في الأرجنتين. العديد من الكهوف في آسيا.. مثل كهف شاندر في شمال العراق، و كهف قاسم في فلسطين، و ربما أشهرها كهف لينغ تيدونجنغ في جزيرة سولاويسي في إندونيسيا.

دعينا نتطرق لبعض منها بشيء بسيط من التفصيل.

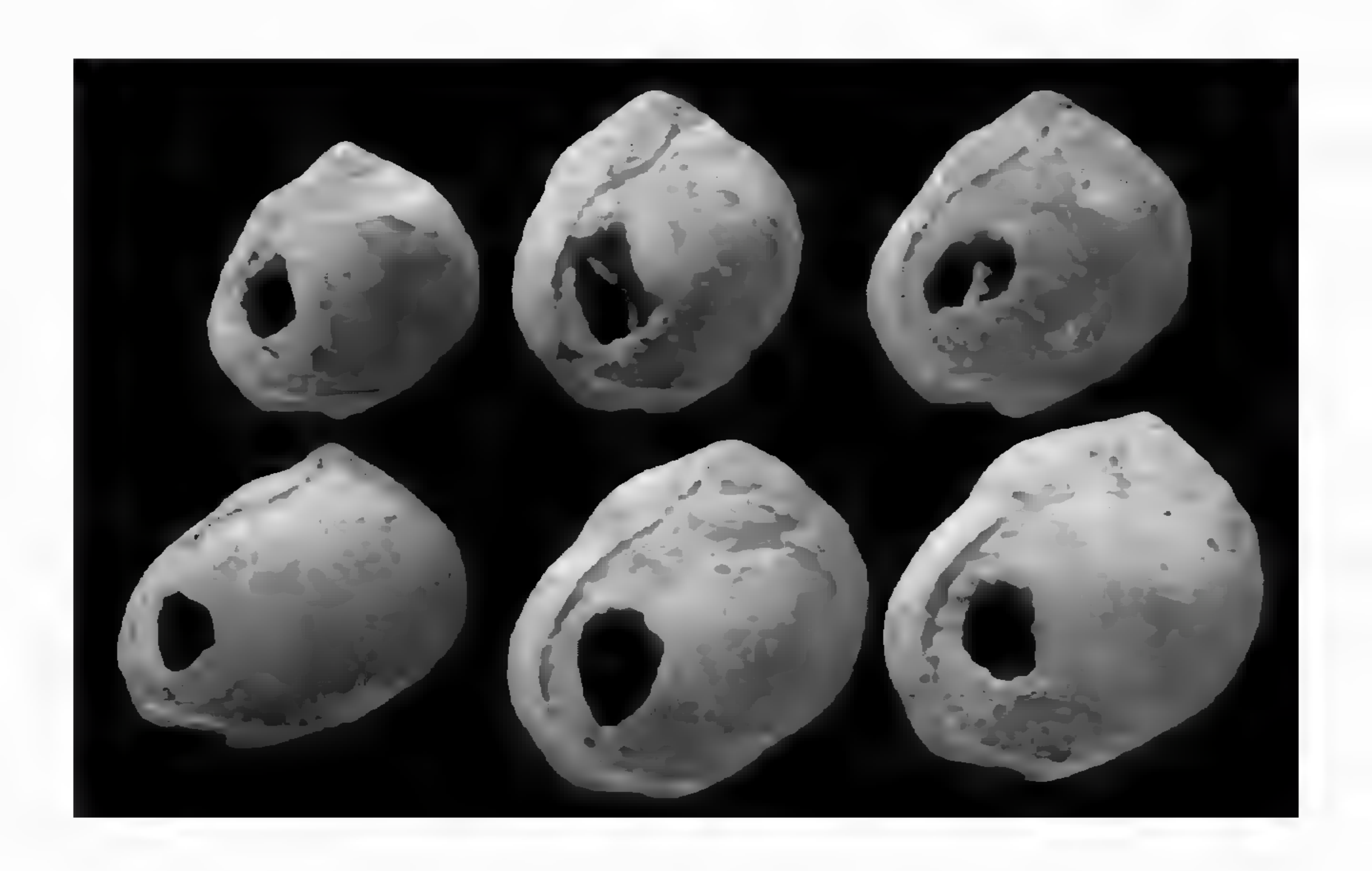
كهف بلومبوس

دعينا نتحدث عن هذا الكهف بشيء من التفصيل.. فبعد كل شيء هو أحد أقدم هذه الكهوف؛ حيث يعود لثمانين ألف سنة خلت؛ أي لـ«العصر الحجري القديم الأوسط Middle Paleolithic»، و هي الفترة التي ظهر فيها الهوموسابيانس كما قلنا سابقًا.

و نجد في هذا الكهف حِرابًا دقيقة الصنع دفعت د. «فنسنت مور»(29) للاعتقاد بمعرفة إنسان هذا العصر لتقنية الضغط الحجري(30).

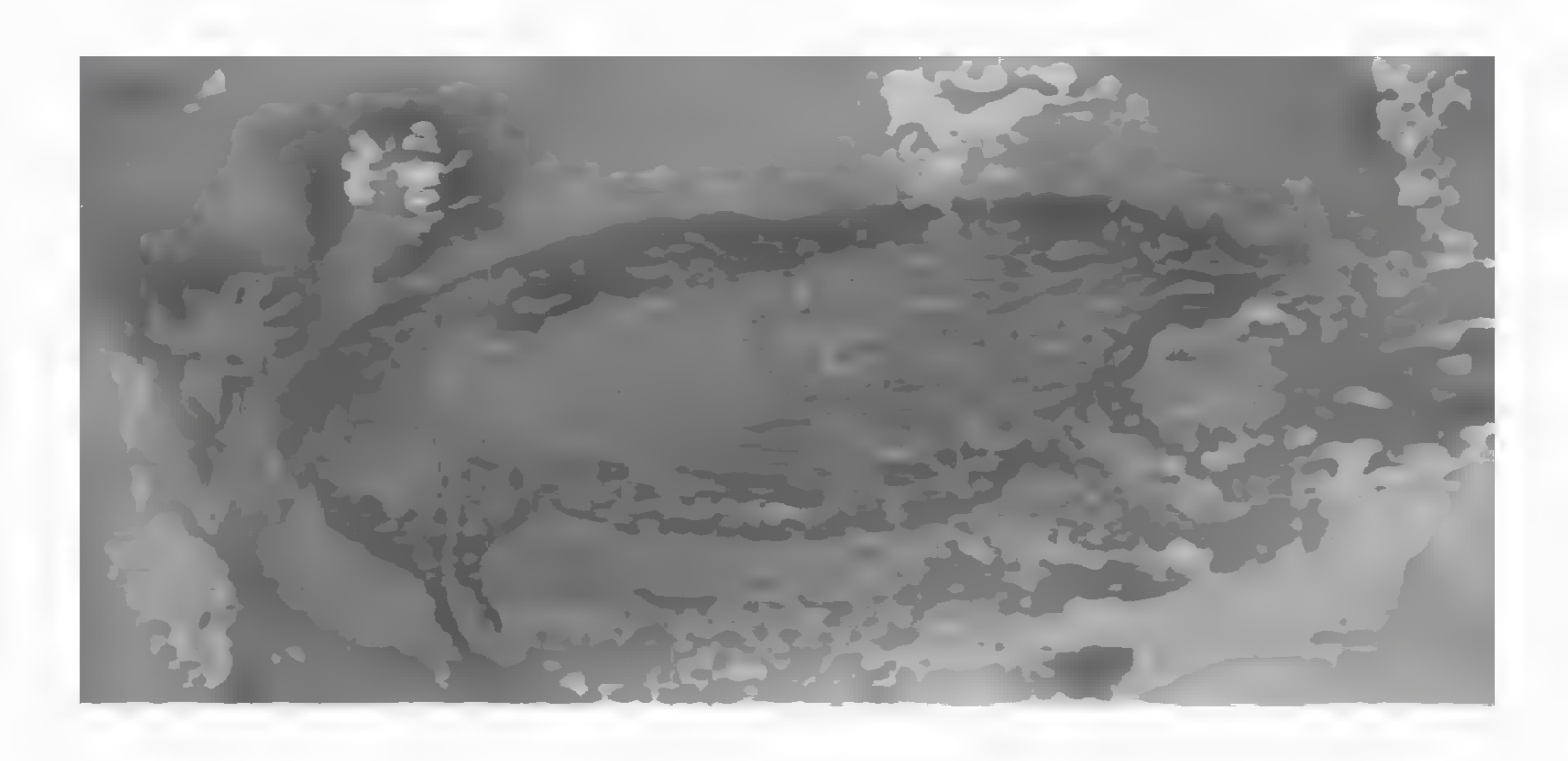
لكن ما يشغلنا في اكتشافات هذا الكهف هو ٣ أشياء أخرى: القواقع.. الخطوط.. التمثال.

١-القواقع:



وُجدت مجموعة من القواقع المثقوبة بعناية في هذا الكهف، و لا يوجد تفسير لها إلا أنها كانت للزينة.. و هو ما يعطينا دليلًا على بدايات فنية بغرض التجميل.

٢-الخطوط:



على الرغم من أن أقدم رسم لحيوان تم اكتشافه في تاريخ البشرية يرجع لما يقرب من ٤٥ ألف سنة ق.م. في كهف لينغ تيدونجنغ في إندونيسيا، و يُصوِّر خنزير سولاويسي وارتي الشهير هناك، إلا أن الخطوط الموجودة في كهف بلومبوس تعد أقدم نقوش بشرية تصل لنا: خطوط متكررة متقاطعة تتكرر في هذا الكهف، لم يستطع أحد أن يصل لتفسير بشأنها.

خطوط متقاطعة تصنع معينات و مربعات، من الصعب ألا تحمل دلالة ما عند صانعها.



فهل كانت هذه هي أول محاولات التدوين التي وصلت إلينا؟



٣- على الرغم من بدائيته الشديدة، فإننا نستطيع أن نتعرف على أول تمثال حجري لإنسان في هذا الكهف، و الأرجح أنه لامرأة؛ حيث تكررت بعد ذلك التماثيل الأنثوية في العديد من الكهوف، و لم تظهر تماثيل الرجال إلا مع عصور الحضارات القديمة، و انتهاء العصر الحجري، و ليس هذا أقدم تمثال عُثر عليه لامرأة، فالتماثيل الأنثوية ترجع لما

يقرب من ٢٠٠ ألف عام ق.م.؛ أي أن الإنسان القديم ظل يصنع تماثيلَ للنساء لما يقرب من ١٩٦ ألف عام!! هذا فيما اكتشفناه فقط، و يجوز بالطبع أن يكون أقدم من ذلك، فربما كان يصنعها قبل ذلك من أشياء زائلة كالطين مثلًا. و لكن لماذا؟ لماذا بدأ الإنسان في صناعة تماثيل للنساء دون الرجال؟ و هل كانت هذه التماثيل لمعبودات بدائية؟ أسئلة عديدة سنحاول الإجابة عليها لاحقًا.

دعينا نكمل حديثنا عن الكهوف بشكل سريع.. ربما ترجع باقي الكهوف التي ذكرناها لـ«العصر الحجري القديم الأعلى Upper Paleolithic»



-و هي كما ذكرنا فهي تتراوح بين ٤٠ ألف عام و ١٠ آلاف عام ق.م.- فكهف «شوفيه» -على سبيل المثال- يعود لثلاثين ألف عام ق.م.، و احتوى -بجانب الأدوات الحجرية و الحُلي- على مجموعة رائعة من الرسوم الجدارية لحيوانات مختلفة، خاصة الحيوانات الخطرة. لاحظي معي التشريح السليم، و التظليل الرائع لأغلب هذه الرسوم. استعمل فنان هذا الكهف الألوان المختلفة مستغلًّا العناصر المحيطة به: الفحم الأسود للون الأسود بالطبع، صخور الأوكر للبنيات، أكاسيد الصخور للأزرق و الأخضر بدرجاتهما، و هكذا.

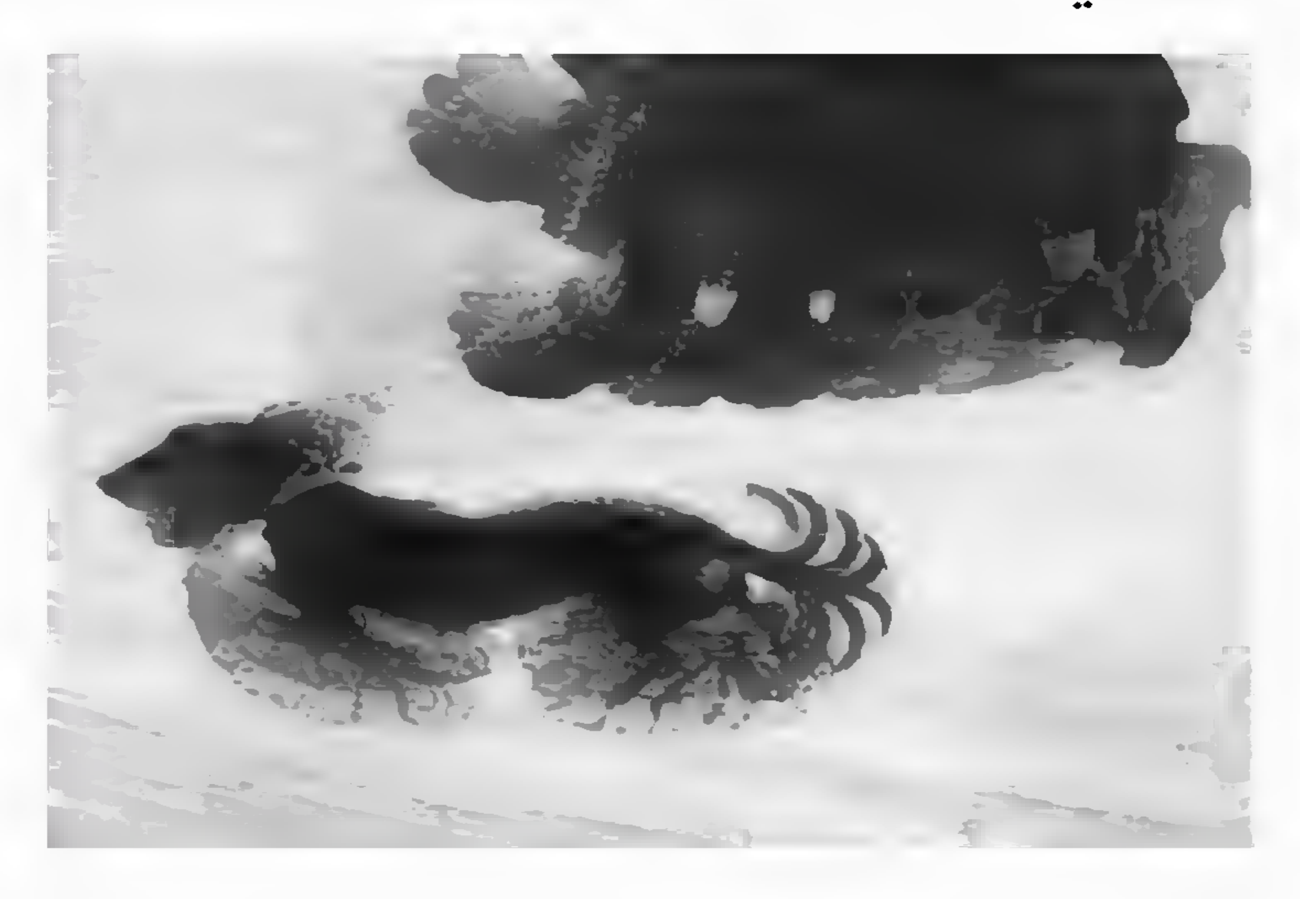
المتأمل لهذه الرسوم لا يسعه إلا التفكير عن سبب رسمها:



هل هو فني صِرف؟ خاصة و الرسومات تحمل طابعًا لحظيًا في العديد من الأوقات مما يعني أن الفنان رآها مرة ثم أكمل تفاصيلها من خياله.. أم أن هناك أسبابًا أخرى؟ لا نملك أن نتجاهل الغرض الفني عندما ننظر للرسمة المتكاملة لخرتيت ضخم، و خلفة خراتيت أخرى تتكرر كأنها صور مهتزة منه. هل يدل ذلك على تكرار وجود خراتيت أخرى؟ و بهذا يحاول فنان هذا الكهف أن يصنع منظورًا يدل على عمق الرسمة.

أم يقصد هذا الفنان الأول أن يدلل على الحركة السريعة

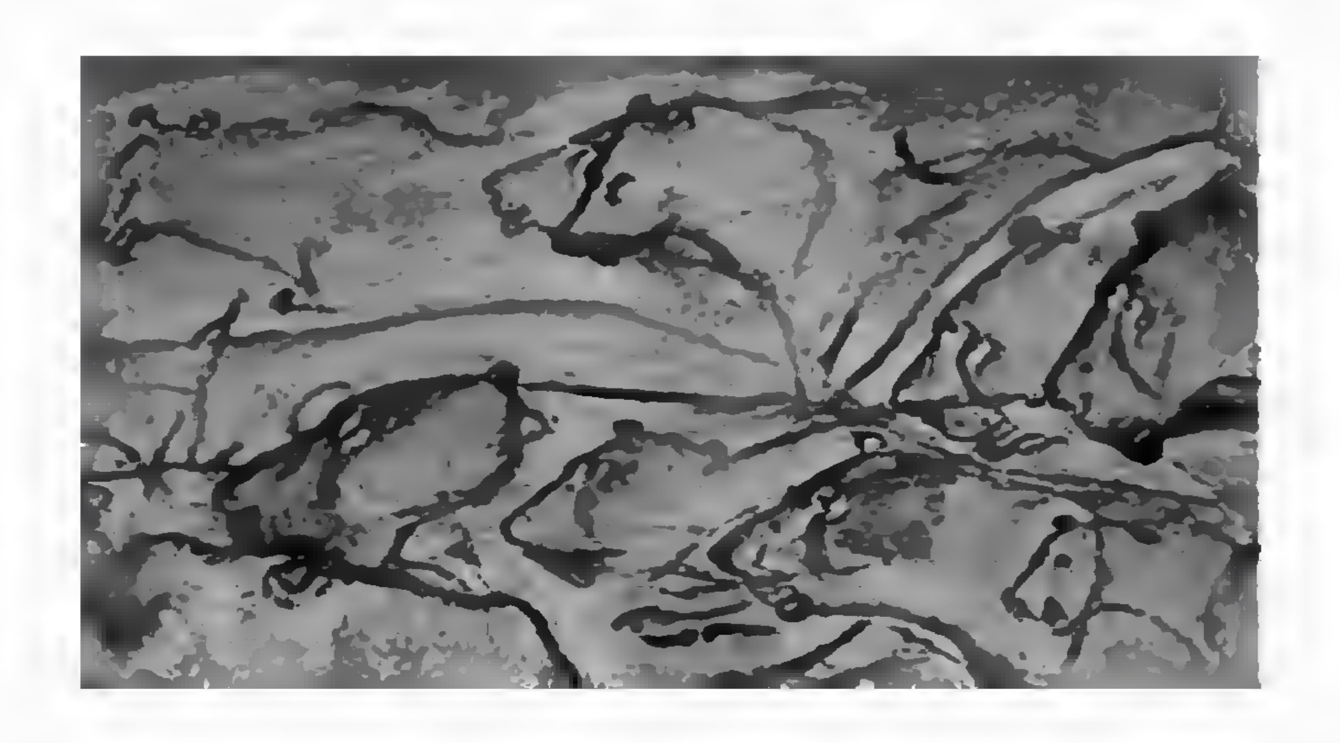
للخرتيت في محاولة فنية عبقرية منه؟



لو صح هذا فإن هذا الفنان يسبق ما فعل «جياكومو بالا» و «أومبرتو مكسيوني» و «جيني سيرفيني» و رفاقهم في النصف الأول من القرن العشرين(31)، كما ترين معي في لوحة «جياكومو بالا»:

Dynamism of a dog on a leash

أم أن غرض هذه الرسوم تعليمي فقط لا غير، خاصة و بعض الرسومات تعطي طابعًا توجيهيًا.



مثل رسمة الأسود و الذئاب ساكنة أمام النار؛ هل تكون بيانًا منه يوضح للآخرين أن هذه الحيوانات المفترسة تهدأ أمام النار؟ أم أنها طقوس سحرية لزيادة الصيد كما قال «هنري بويل»في كتابه «أربعمائة قرن من فنون الكهف»، و هي وجهة نظر بالطبع، و لكن يقف ضدها أنها لا تفسر رسوم الكائنات المفترسة التي غلبت على رسوم الكهف في الأصل.

بعض محاولات التفسير لا تخلو من الغرابة مثل قول «لويس ويليامز» في كتابة «كهنة الشامان في عصور ما قبل التاريخ»: إن هذه الرسوم تعبر عن رغبة الرسام في الخروج من الكهف، فما الذي يمنعه من الخروج؟ إلا إذا اعتبرنا أن باقي المجموعة منعته من ذلك، و هو ما يدفعنا للتساؤل: لماذا؟ و هو تساؤل يستدعي تساؤلًا آخر: ما هي طبيعة الذي قام بهذا الرسم؟ هل هو رجل ذلك العصر.. الحجري أقصد؟

يعترض د. «ياسر شحاتة» على هذه الفرضية بسبب صعوبة تخيل أن الرجل يخرج طوال اليوم؛ ليمارس مهامه في الصيد بصعوباتها العديدة، ثم يعود في الليل يغالب إرهاقه، و لكنه يجلس؛ ليرسم على الجدران.

و لكن.. لم لا يفعل ذلك يا عزيزتي؟ فنان، و أنت تعرفين ما الذي يفعله الفن بمن يستبدُّ به، فلو كان رجل الكهف هذا فنانًا -كما نعتقد- لاستبد به الفن، و لوجد الطاقةَ لفعله مهما كانت الظروف، و هو دليل عندنا على كون الفن ضرورة حتمية للإنسان تُرغمه على ممارستها. كما أننا نتساءل: هل كان نشاط الصيد يوميًّا؟ ألم تكن هناك أيام لا يحتاج فيها رجل هذا العصر للصيد، فيستغلها في إبداعه الفني أو التعليمي؟ لكن هناك العديد من الملاحظات التي ربما تجعل تفرُّغ هذا الرسام الأول للرسم فقط لا غير ضرورة مثل:

١- الحاجة للتدريب على استخدام الأدوات.

٢- الدقة التشريحية التي يتفوق فيها فنان هذا العصر الحجري على فناني عصرنا الحالي فهو يصل لهذه الدقة من خلال قدرته الفنية لا دراسته التشريحية كما يحدث الآن.

٣- صورة الكفوف،



و هي صورة هامة نرى فيها تكرارات لكف الفنان الأيمن، و تبدو كفه رقيقة صغيرة، لا تتناسب مع ما يمارسه رجل هذا العصر من نشاط بدني في الصيد.

تتركنا هذه الصورة لأحد ثلاثة احتمالات:

- أن يكون فنان هذا الكهف امرأة.. و هو ما يتفق مع القول بأن النساء في ذلك العصر كن يعشن في الكهوف في انتظار عودة الرجل من الصيد، و لا يمارسن غير جمع النباتات.. مما يمنحهن الوقت الكافي لممارسة الفن، و هو احتمال قائم و هام.

- أن يكون هذا النشاط الفني نشاط يمارسه الشباب اليافع قبل أن يمتهن الصيد.. و هو احتمال ضعيف لما يتطلبه هذا الفن من حنكة و تجربة و معرفة بالحيوانات و أوضاعها و أشكالها؛ حتى يخرج الرسم بهذه الدقة.. و هو إن توفر مرة في أحد الأفراد كموهبة متفردة، فلن يكون قاعدة لجميع فناني هذا العصر.

- أن يكون رسام هذا العصر هو شخص ذو طبيعة خاصة، تم اختياره من البداية؛ ليكون فنانًا يرسم هذه الرسومات، بينما يعمل الآخرون بالصيد و جمع النباتات، و لهذا لم تتأثر يداه بطبيعة الحياة الخشنة في ذلك العصر.. و هذه فرضية تستحق التأمل.. نحن هنا أمام شخص يجلس في الكهف؛ ليرسم بينما يكدُّ الآخرون من أجل أن يأتوا له بالطعام.. صيدًا و جمعًا للنباتات.

هذه الفرضية تجعلنا نتساءل: هل اعتبر إنسان هذا العصر الفن بهذه الأهمية؟ في الحقيقة، أعتقد أن محرك ذلك - لو صدق- كان دينيًا، و أن إنسان ذلك العصر اعتقد أن هذه الرسوم ستساعده بشكل قطعي في حياته سواء بزيادة الصيد أو دَرْء الخطر، مما يعني أن فنان ذلك العصر كان هو كاهنه، و ربما كان لوجود الرسومات في الأماكن المظلمة، و البعيدة من الكهوف -التي تحتاج للمشاعل لرؤيتها دلالة على

كونها كانت تحتاج لأوقات معينة لرؤيتها و زيارتها- ما يتفق مع مفهوم الطقس الديني. تنتمي كهوف: ألتاميرا، و لاسكو، و نيوكس لنفس حقبة العصر الحجري القديم الأعلى Upper Paleolithic مثلها مثل كهف شوفيه، و إن كانت أحدث منه.

فيرجع كهف ألتاميرا في شمال إسبانيا لما يقرب من ١٧ ألف عام ق.م. و يرجع كهف لاسكو لما يقرب من ١٥ ألف عام ق.م.



أما كهف الأيدي في بتاجونيا، فترجع الرسومات على جدرانه لما يقرب من ١٣ ألف سنة مضت، و لكن الغريب فيما يتعلق بها هو غلبة رسوم الأيدي.

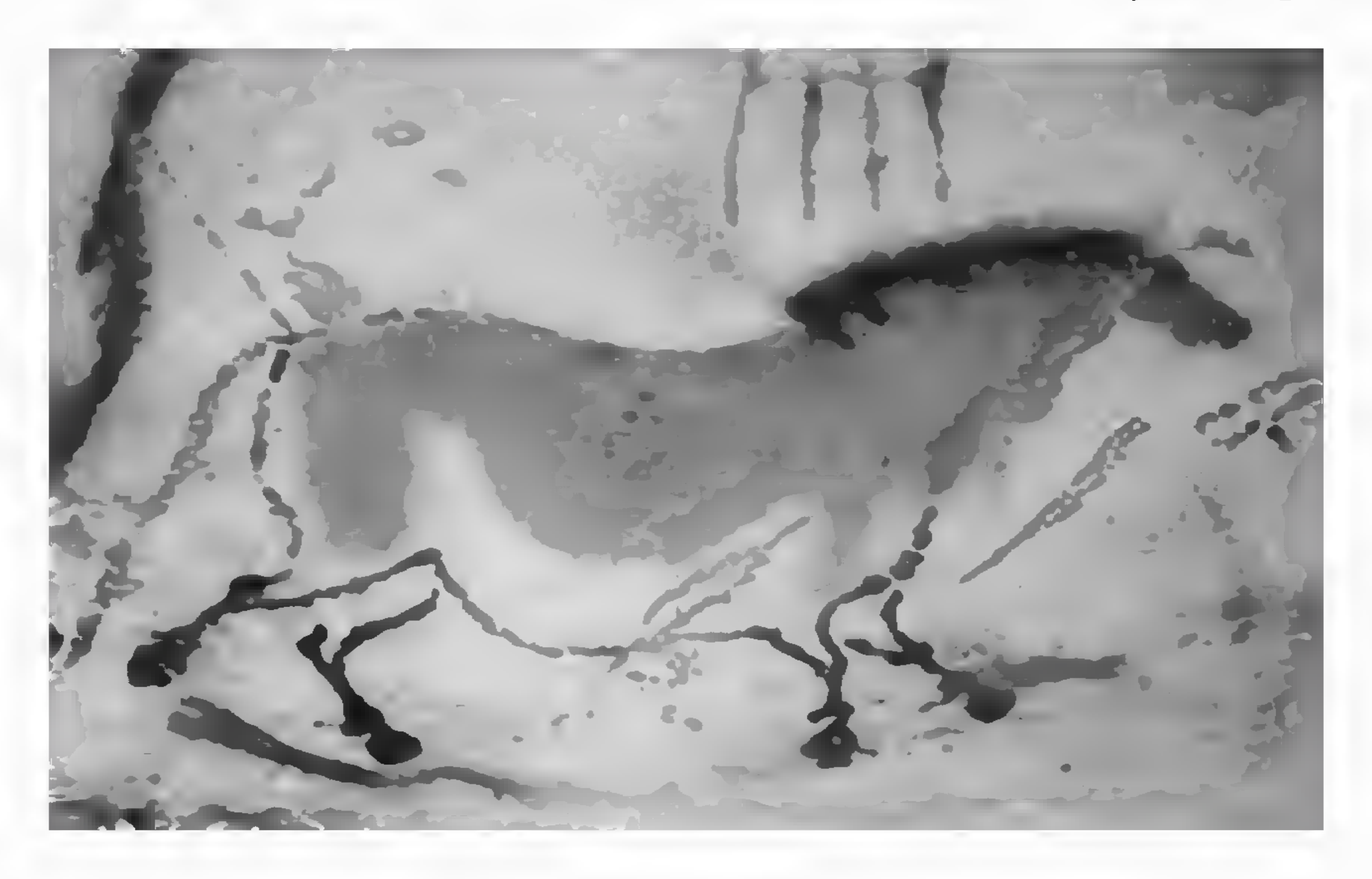




رسوم تشبه الجرافيتي للعديد من أكف الأيدي إضافة لبعض رسوم البشر و الطيور و القطط البرية و استراتيجيات الصيد.

في حين يرجع كهف نيوكس في جنوب فرنسا لما يقرب من ١٢ ألف سنة ق.م.، و تتشابه رسوم كهفي لاسكو و نيوكس

مع رسوم كهف تشوفيه.



من حيث الدقة التشريحية، و استخدام التظليل، و القدرة على استخدام الخيال و التعبير.

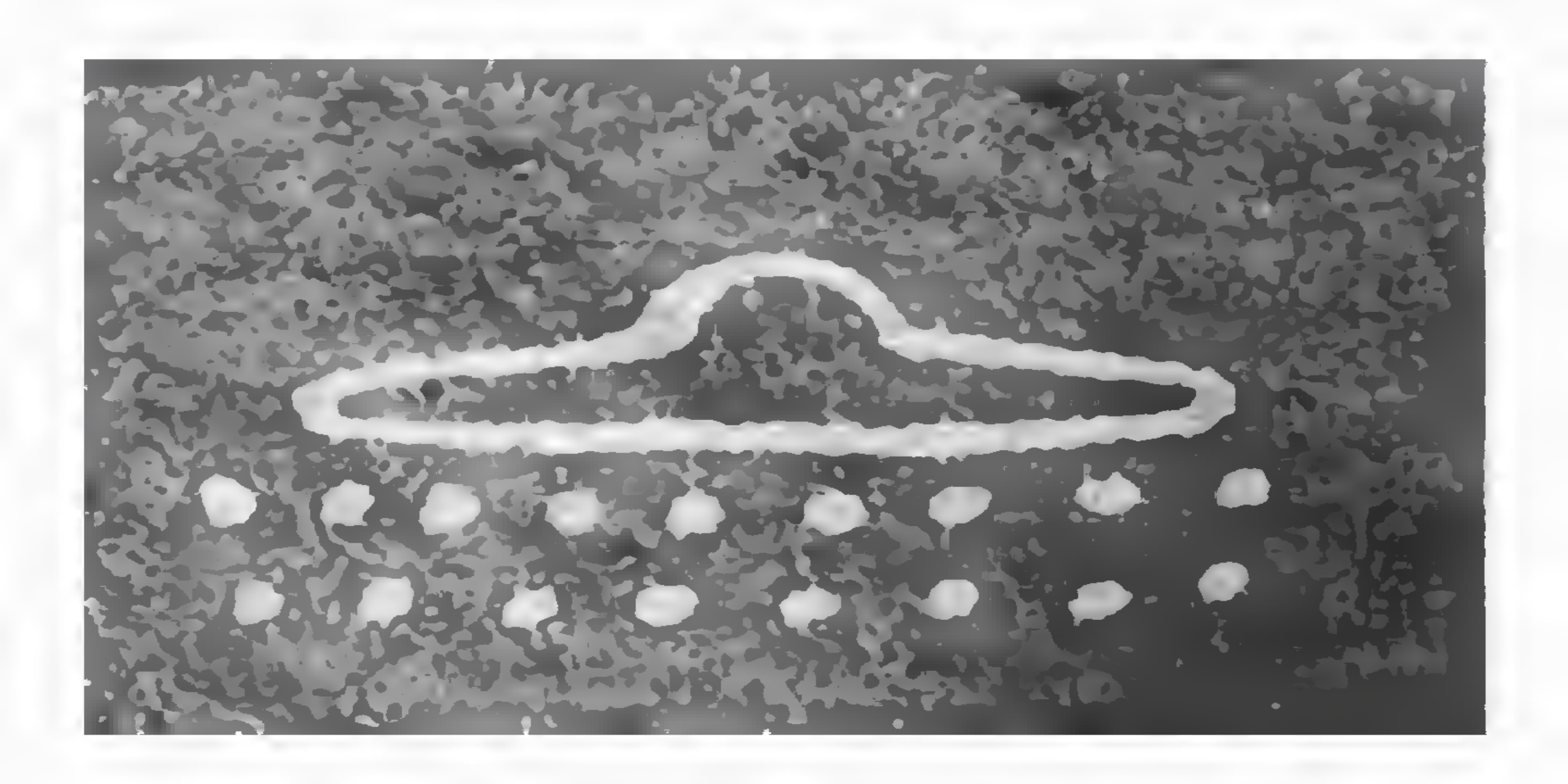
و إن ازدادت رسوم الحيوانات المرغوبة في الصيد عن الحيوانات المفترسة.



أما رسوم كهف نيوكس، فقد غلب عليها استخدام الفحم فقط.. و كأن الفنان اتجه للواقعية الرمزية أكثر. و لكن دعينا نتأمل معًا هذه الرسمة، و نتعجب معًا قليلًا.. شاهدي معي الرسوم التي يبدو فيها التصحيح واضحًا يا عزيزتي.

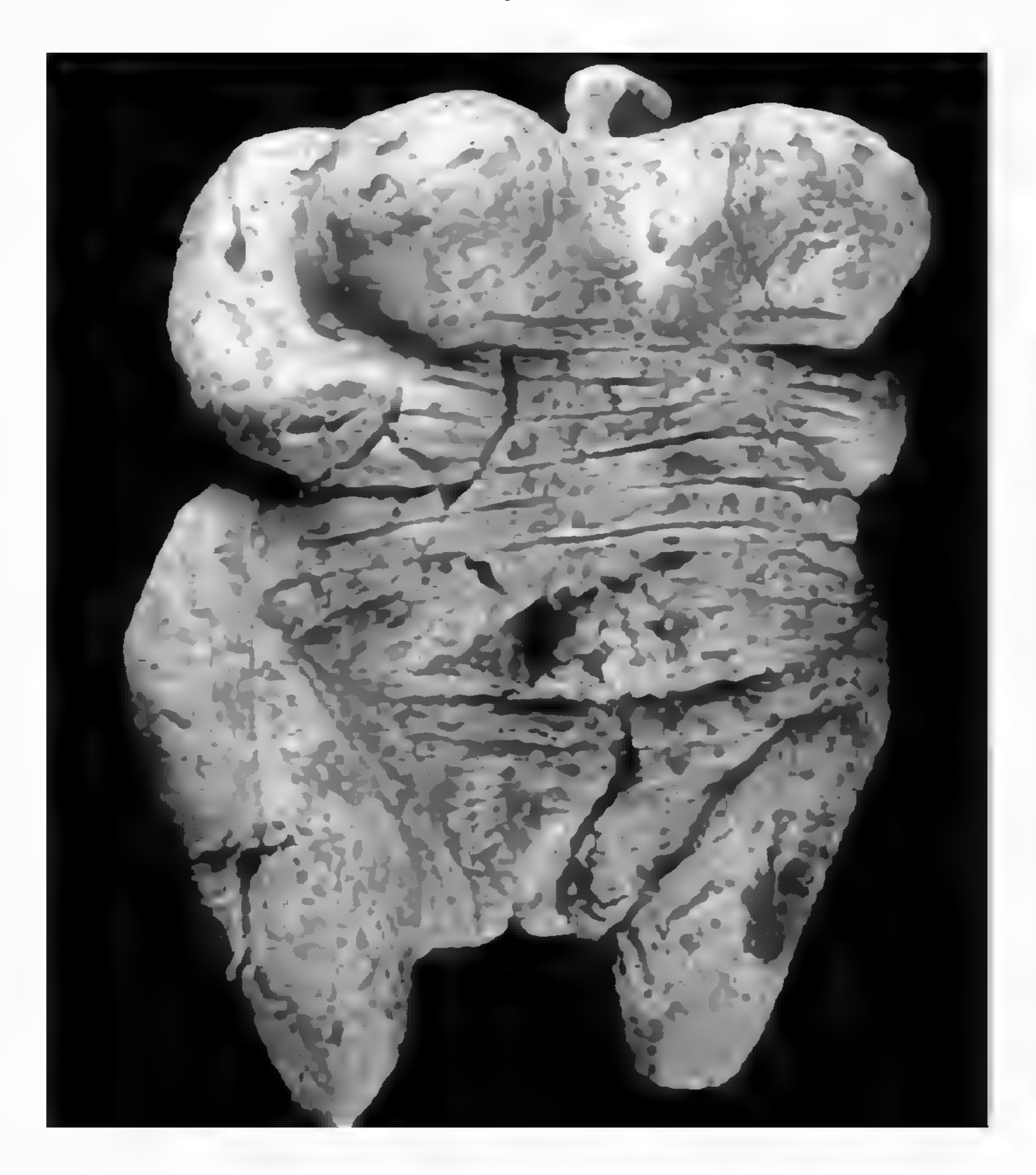


ألا يجعلنا ذلك نتساءل: هل كانت هناك دروس للرسم في ذلك العصر؟



و الآن انظري معي لهذه الرسمة الأخرى الموجودة في نفس الكهف، و لنتساءل معًا مثلما تساءل الجميع: هل هذه رسمة لأطباق طائرة؟ تذكريها جيدًا، و لنتركها الآن، و نتحدث عنها لاحقًا. و لنبدأ الآن في الحديث عن المرأة في ذلك العصر.

المرأة



ظهر الفن في العصر الحجري القديم الأوسط.. و ازدهر في العصر الأعلى، كما تخبرنا رسوم الكهف.. و لكن المرأة كان حظها أوفر من ذلك.. فنحن نجد تماثيل أنثوية قديمة قِدَم ظهور الهوموسابيانس.. أي منذ العصر الحجري الأدنى.. منذ

٢٠٠ ألف عام!

فقد وجد العلماء أقدم تمثال حجري لامرأة في سوريا.. يرجع لمائتي ألف عام ق.م. ورغم البدائية الشديدة، فإننا نجد اهتمامًا من النحات بمنطقتي البطن و الثدي مقارنة بالرأس.. فهل ذلك لعلاقتهما بالحمل و الرضاعة؟

تتكرر ظاهرة التماثيل الأنثوية مع إنسان العصور القديمة بغض النظر عن مكانه.. فنجده أيضًا في جنوب إفريقيا في كهف «بلمبوس» الذي يعود لما يقرب من ثمانين ألف عام قبل الميلاد، و إن لم يبدُ قدرة فنان كهف «بلمبوس» مثل باقي فناني الكهوف.. أو لعله لم يكن مهتمًا بالعناصر الأنثوية مثل الآخرين.







وفي روسيا عن قِدَمٍ يقترب من الثلاثين ألف سنة قبل الميلاد.

و في كرواتيا،و الذي يرجع لخمسة عشر ألف- و ربما لعشرين ألف- سنة قبل الميلاد

و كلها تتميز بنفس الصفات.. من اهتمام النحّات بالمناطق الأنثوية. تتركنا هذه التماثيل أمام تساؤلات عديدة يا عزيزتي:
لماذا المرأة؟ هل اعتبر إنسانُ ذلك العصر أن المرأة هي المسؤولة عن الخلق؟

فكري معي يا صغيرتي:

لو لم يكن إنسان ذلك العصر على وعي بالعلاقة بين الجماع، و الحمل، و الإنجاب، فمن المنطقي لديه إذن أن يرى المرأة مسؤولة عن خلق الإنسان؛ يراها أمامه، تنتفخ بطنها، ثم يخرج منها الأطفال.

لاحظي معي أن إنسان ذلك العصر لم يكن -حتى- على علاقة وثيقة بالحيوان، فقط يصطاده؛ ليأكله، لا يربيه، و لا يعرف كيف يتكاثر هو الآخر.

في كتابها «قصة الجنس عبر التاريخ» تتبنَّى «راي تاناهيل»(32) هذه النظرية، و تؤكد على كون المجتمع بدأ أنثويًا، لا يعرف فضلًا للذكر في خلق الجماعة، و تستدل على ذلك بقبائل بدائية كانت ما تزال حتى كتابتها لكتابها تجهل العلاقة بين الجماع و الحمل، مثل سكان جزر سليمان -البولونيز- الذين ظلوا يعتقدون حتى الثلاثينات من القرن العشرين أن أسلافهم يُرسلون لهم الأطفال، و أن فائدة الجماع الوحيد هي المتعة، أما قبائل الهُوا في بابوا غينيا، فتعتقد أن الرجل قد يحمل إذا أكل الأبوسوم. و عندما تم تفسير دور الرجل، و الأبوة لإحدى نساء قبائل أستراليا، استنكرت ذلك، و رفضته رفضًا قاطعًا، و ردَّت باحتقار: «هو لا شيء.»

لهذا من السهل أن نتخيل تحول الأنثى لإله في هذه العصور القديمة، بل إن المنطق يجعلنا نعتقد أن القيادة ربما كانت القيادة أنثوية أيضا في تلك، و لعل الآلهة الأنثوية، و سيطرتها على ديانات الحضارات القديمة امتداد لذلك.

يتماشى ذلك مع وجود التماثيل النسائية في العصر الحجري القديم، على العكس من التماثيل الرجالية التي لم تبدأ في الظهور إلا مع الحضارات القديمة، و ازدياد فهم الإنسان لطبيعة التكاثر من خلال تطور علاقته بالحيوان، و اعتماده على الرعي و الزراعة -و ما استلزمته من تدجين الحيوان- عوضًا عن الصيد.

و لكن.. تحدثنا كثيرًا عن العصر الحجري القديم.. لعل رأسك الجميل يشعر بالصداع الآن من كل هذه الاحتماليات، و الفرضيات غير القابلة للجزم

يكفي ذلك على الباليوليتك، و لننتقل لـ«النيوليتك»..
الآن.. لننتقل للعصر الحجري الحديث.

١- العصر الحجري الحديث Neolithic:

يبدأ منذ نهاية العصر الحجري القديم Paleolithic، فيما يقرب من ١٠آلاف سنة ق.م. تقريبًا، و ينتهي ببداية الحضارات القديمة. و هذه النهاية تختلف بشكل كبير في

التوقيت اعتمادًا على المنطقة التي نتحدث عنها، فإننا نرى أن العصر الحجري الحديث انتهى عند الحضارات القديمة - التي بدأت حول الأنهار في العراق و مصر و الشام و الهند و الصين- فيما يقرب من ٦ آلاف عام ق.م.

بينما امتدت في أوروبا، و بعض مناطق آسيا، و أمريكا اللاتينية؛ لتنتهي فيما يقرب من ٢٠٠٠ عام ق.م. في حين امتدت في بعض مناطق إفريقيا، و أمريكا، و أستراليا لما يقرب من ١٥٠٠ سنة «بعد» الميلاد!

ثقافات البداية الحضارية.

يتحدث «آلان سيمون» في كتابه «ثورة العصر الحجري الحديث في الشرق الأدنى» عن ثقافة ظهرت في الألف الثانية عشرة ق.م. في وادي النيل في مصر يطلق عليها العلماء اسم الموشافيان Mushafian، و تمثل البداية الحقيقية للمجتمع الرعوي، و المجتمع الزراعي.

و منها هاجرت جماعات لشمال إفريقيا، و جماعات أخرى للشام و العراق؛ حيث ظهرت ثقافة الناتوفيان Natufian.

و من المجتمع الناتوفي السوري العراقي هاجر البعض لجنوب أوروبا. اعتمد هذا الكلام على تحليل الحامض النووي من خلال الكروموسوم E١b١b، و هو كلام لا يخلو

من ملاحظات تدعمه، مثل التشابه الواضح لشعوب البحر المتوسط، كما تعرفين. تميز هذا العصر بتدجين الحيوانات و بدايات الزراعة، و لعل ذا هو أحد أسباب اكتشاف إنسان هذا العصر للدور الذي يقوم به الذكر في الزواج، فتربية الحيوان تكشف له أن الإناث لا تَلِد دون جماع الذكور، بل إن وجود ذكر واحد وسط قطيع من الإناث يكون كافيًا لأنْ تنجب كل هذه الإناث، و يؤدي إلى زيادة عدد القطيع بشكل واضح، و هو ما لا يحدث عند عكس الوضع. لو كانت هذه الفرضية حقيقية، فلا بد أن هذا الاكتشاف أحدث انقلابًا اجتماعيًا، جعل السيطرة للرجل، و جعل تعدد الإناث للذكر هو الأَوْلى؛ لِما له من فائدة في زيادة عدد الجماعة، و هكذا.. ظهر المجتمع الأبوي.. مجتمع ذكوري السلطة و النسب. و دعينا نمر مرورًا سريعًا على كهوف هذا العصر، و نُولي اهتمامًا أكبر بالموشيفان.. فنحن معنيون بما يحدث في مصر بطبيعة الحال.

تاسيلي.



و ترجع لما يقرب من ١٠ آلاف سنة ق.م.، و يستمر فيها إحساس فنان الكهف الرائع بالتشريح و الظِّلال و الألوان و تمتلئ رسومه بالحركة.. و إن كان اهتمام إنسان هذا العصر بالشكل الإنساني أقل بكثير من اهتمامه بالشكل الحيواني.

فبينما ظهرت رسومه للحيوانات دقيقة لحد بعيد، فإن رسومه للإنسان لا تلتزم بنفس المعايير..

و لا نستطيع أن نتحدث عن كهوف تاسيلي دون أن نتحدث عن رسوم غريبة لأشخاص غريبين بشكل يدعو للتأمل.. انظري معي:





صور كهذه مَنَحت هذه الكهوف شهرة مدوية.

تحدث عنها كُتَّاب عرب فائقو الشهرة: «أنيس منصور» مثلًا في أحد كتابيه «الذين هبطوا من السماء» و «الذين عادوا للسماء»، لا أذكر في أيٍّ منهما بالضبط. د. «أحمد خالد

توفيق» له أسطورة عظيمة من أساطير ما وراء الطبيعة - أسطورة حارس الكهف- تستغل هذا الغموض المبهر، أعرف أنه تم تقديمها في مسلسل شهير، لا تلتفتي لما تم تقديمه في المسلسل، اقرئيها؛ للقراءة متعة خاصة، لا تضاهيها متعة، كما أن الرواية تختلف عن المسلسل كثيرًا. أعرف أن رواياته لم تُترجم بعد، سأحاول أن أترجمها لك؛ هي تستحق. و على مستوى العالم كله أخذ الكثيرون يتحدثون بحماس عن وجود لكائنات فضائية حولنا، و أنها كانت تكشف عن نفسها في الماضي بشكل أوضح، و ربما لعبت دورًا في تطور البشرية، حتى تحدَّث أدب الخيال العلمي -و بالتبعية السينما- عن فرضيات كهذه، ربما كان أحبها لقلبي «أوديسا الفضاء ٢٠٠١».

و أرجوك لا تقولي إنك لا تعرفينه.

هذا هو أحد أهم، و أشهر أفلام الخيال العلمي في التاريخ.

كان «آرثر سي كلارك» قد كتب قصة قصيرة اسمها «الحارس»، ثم استوحى منها رواية «أوديسا الفضاء ٢٠٠١»، و هي التي كتب لها السيناريو مع «ستانلي كوبريك»؛ ليُخرج لنا «ستانلي كوبريك» هذا الفيلم شديد الجمال عام ١٩٦٨ بطولة «كير دوليا»، و «غاري لوكوود»، و «ليام سلفستر».

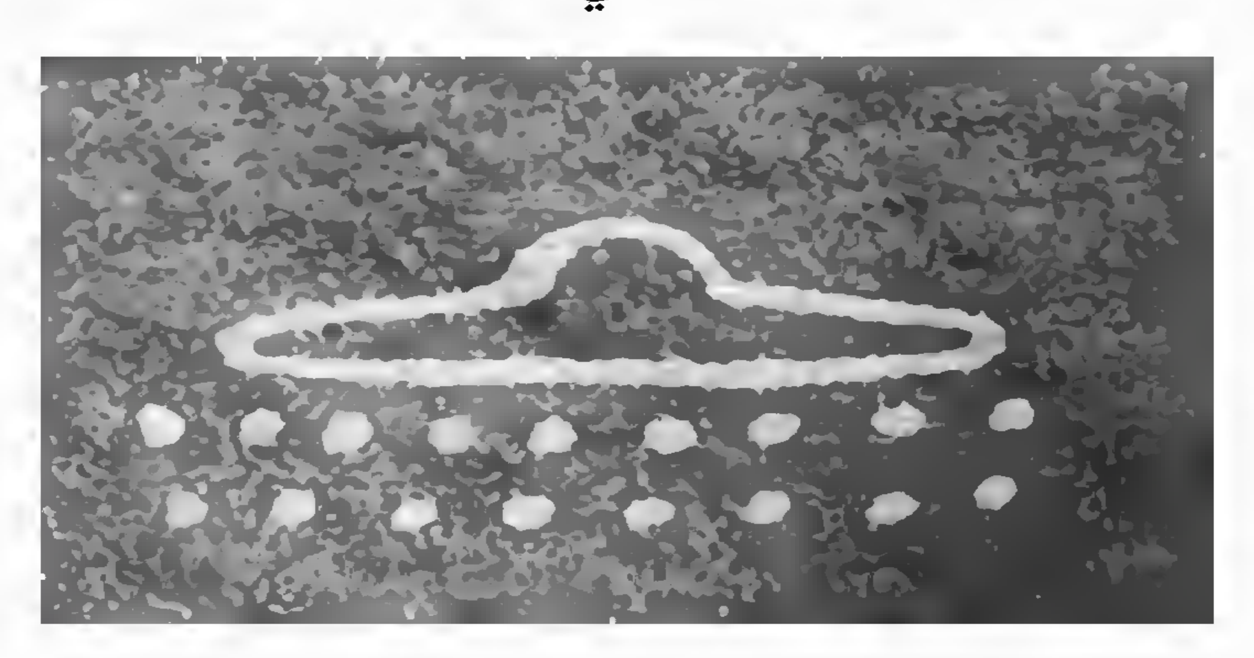
أعرف أنك لا تعرفين أيًّا منهم؛ الستينات تبدو بعيدة جدًّا

هذه الأيام.

المهم.. هذا الفيلم يتحدث عن هذه الفرضية بشكل جميل جدًّا.

الكائنات الفضائية.

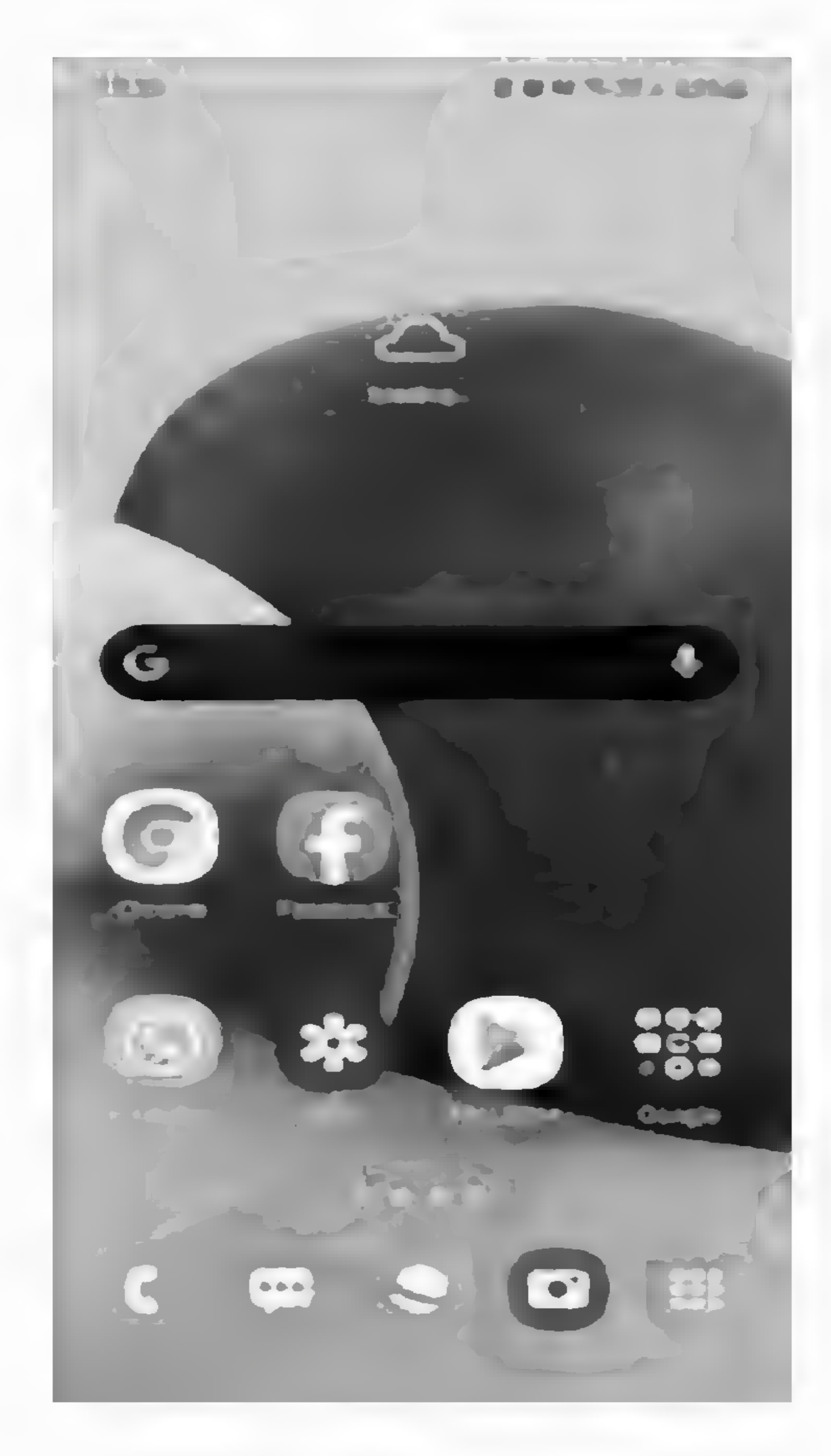
دعينا نعد للكائنات الفضائية.. الحقيقة أنني أعتقد أن سبب هذه الإشكالية أننا ننظر لهذه الرسومات بعقليتنا الحاضرة.. و من خلال ثقافتنا التي تراكمت عبر آلاف السنين.. و لكن لو نظرنا لها واضعين عقليةَ رجل الكهف في بالنا، فإننا سنجد تفسيرات واضحة لها.. مثلًا.. صورة الطبق الطائر.. أتذكرينها؟ قلت لك تذكريها جيدًا يا عزيزتي.. لا عليك.. هذه الصورة



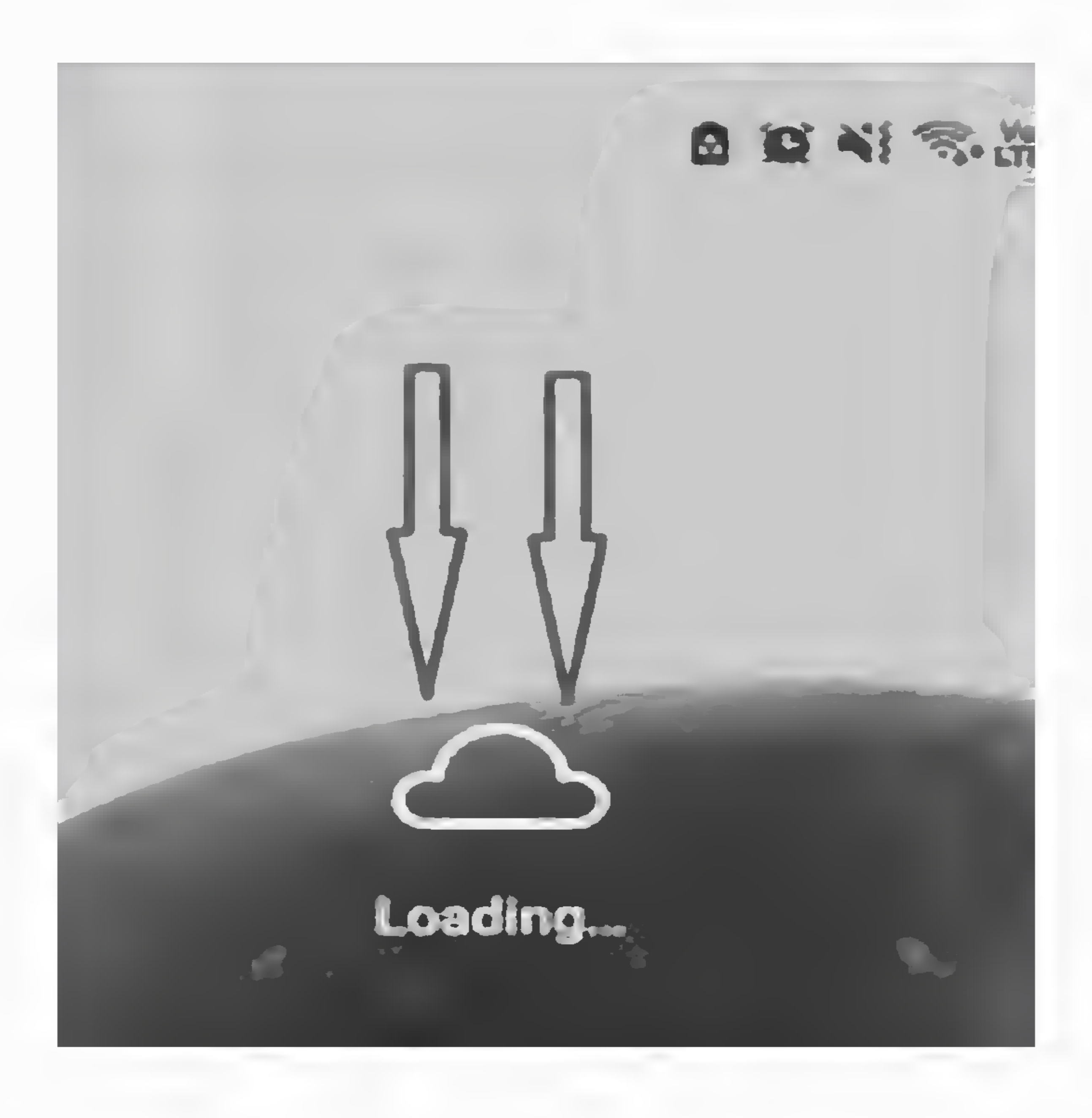
كنت أفكر في أمرها مذهولًا عندما كنت أفتح هاتفي المحمول، الذي كان مغلقًا، فوجدت هذه الصورة أمامي:

صورة عادة كما ترين لشاشة الموبايل، و لكن ما لفت

نظري هو شكل تطبيق الطقس، و الذي كان لا زال في طور التحميل..

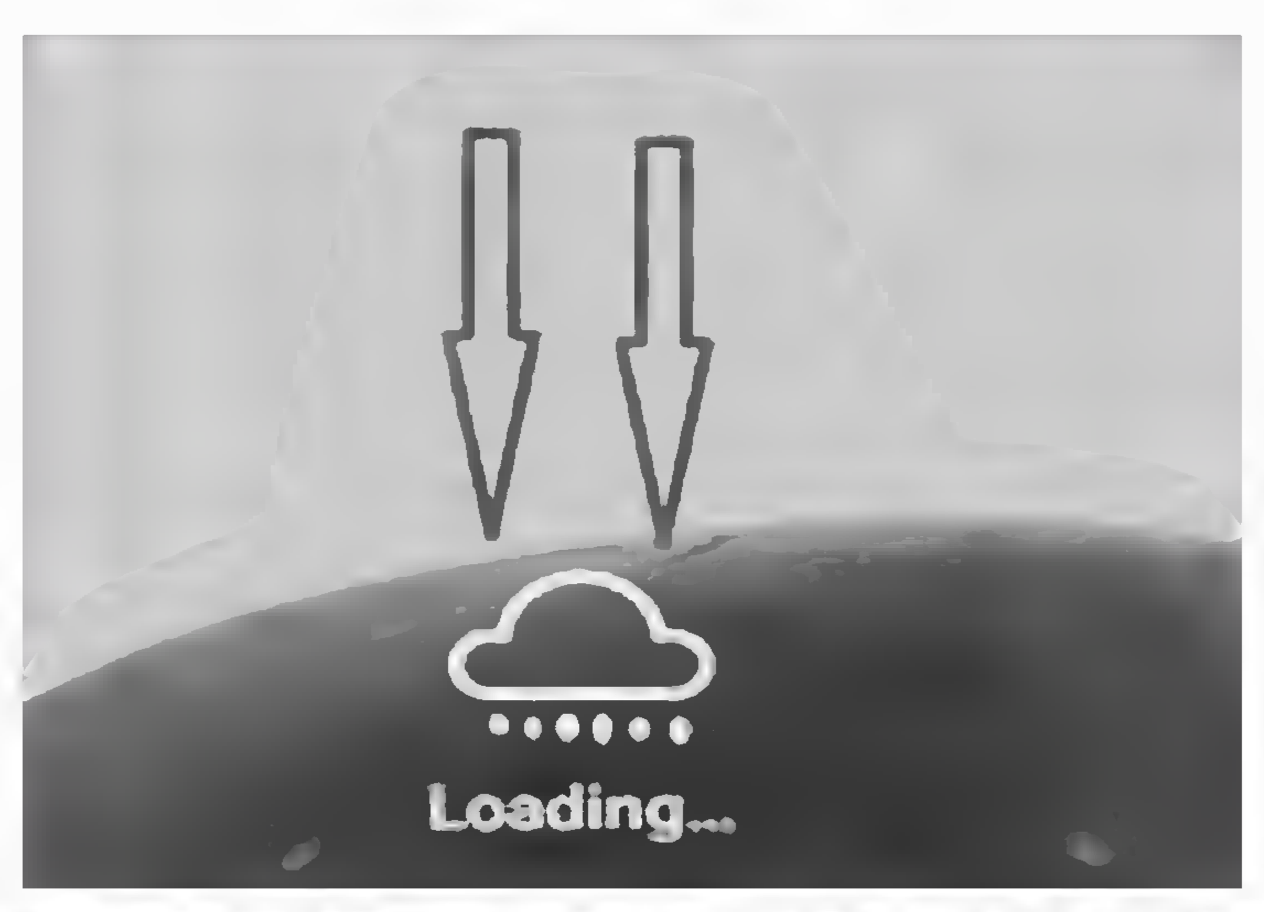


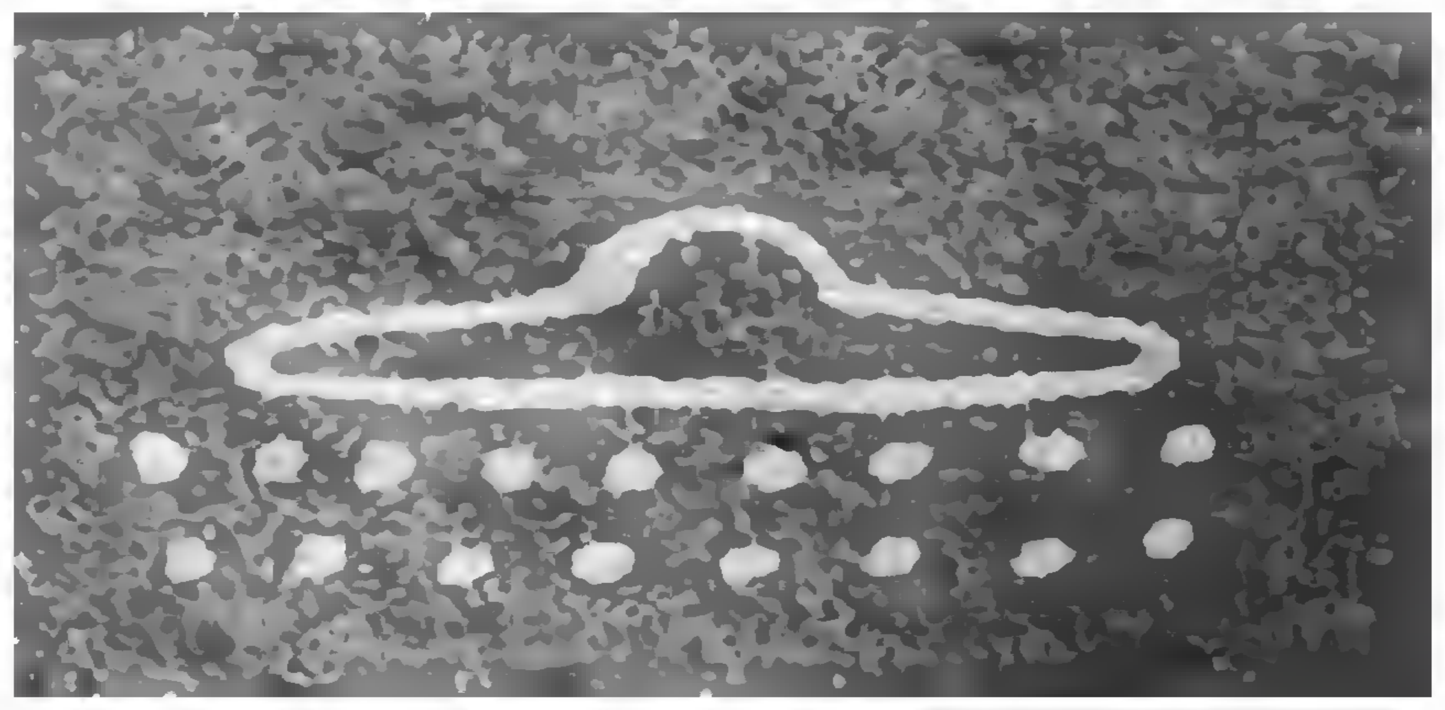
دعينا نقرب الصورة بعض الشيء



و ركزي معي على ما يشير له السهمان الأحمران.

و الآن.. لنتخيل معًا أننا بِدائيون أكثر من بدائيتنا الحالية، و لنحاول أن نرسم سحابة، و تحتها قطرات مطر.. أرأيتِ معي الشكل الذي ظهر؟ ألا يبدو لك شبيهًا برسم رجل الكهف؟





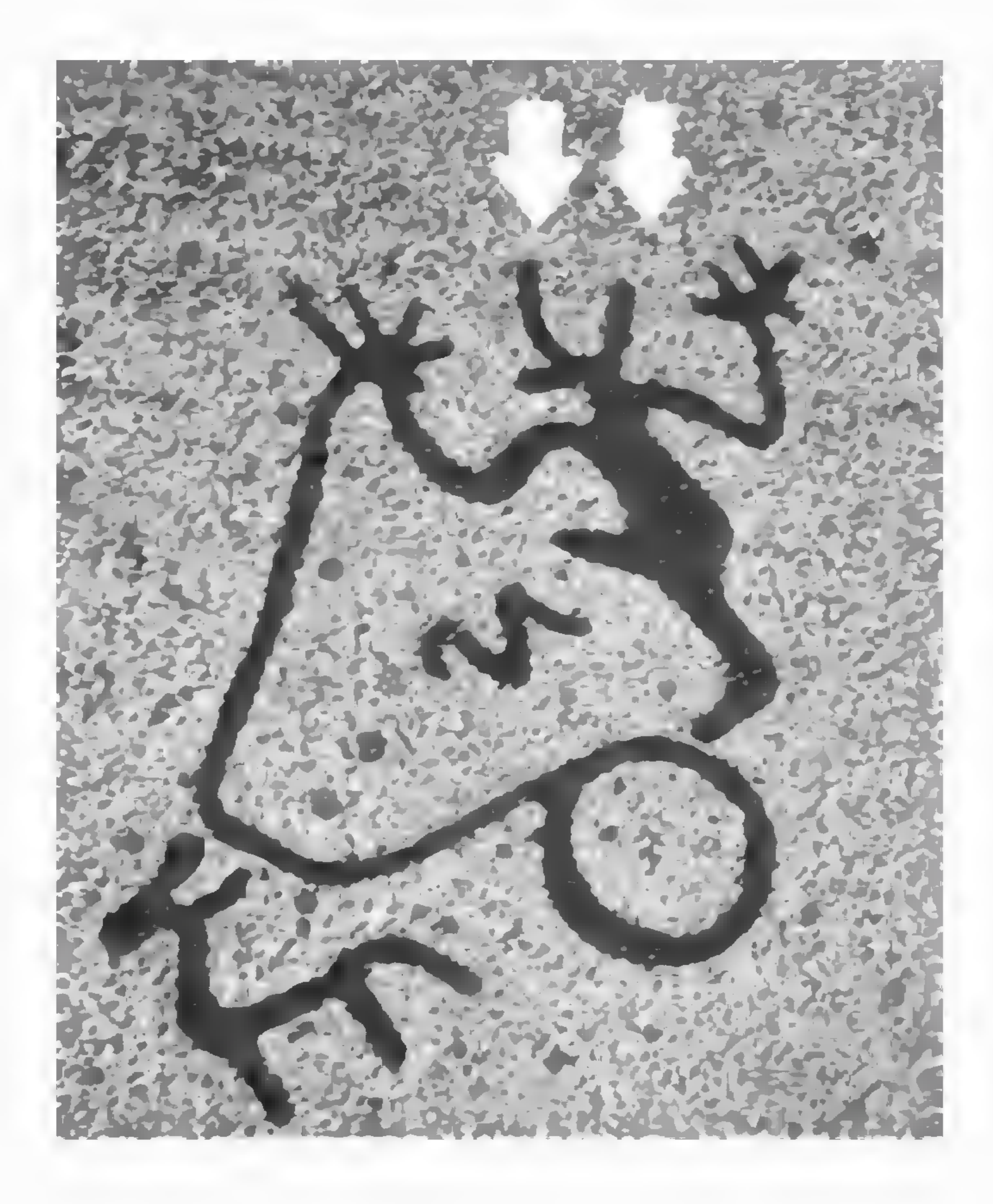
عن نفسي أشعر التشابه واضحًا..

من الغريب أن نترك تفسيرًا شديد المنطقية، لنُصِرَّ على تفسير غرائبي مليء بالتفاصيل التخيلية التي لا يوجد عليها دليل وحيد يقترب -حتى- من القطعية. دعينا نتحدث عن

الأشكال العجيبة التي ظهرت في رسومات رجل الكهف هي الأخرى، و فكري معي في حياة رجل الكهف التي اعتمدت على الصيد.. هل من الممكن أن يحاول رجل الكهف التنكر بعض الشيء مستخدمًا الأشجار من حوله؛ ليصنع بها تيجانًا من الأغصان، أو ليصنع بها قرونًا وهمية؛ ليخدع بها الحيوانات التي يريد اصطيادها بينما يقترب منهم؟ فلو ارتدى رجل الكهف هذه التيجان، و القرون الخداعية، و أراد صديقه أن يرسمه أليس من المنطقي أن تظهر هذه الرسومات بهذه الأشكال؟







خاصة، و نحن نعرف عن رجل الكهف عدم اهتمامه بالأبعاد التشريحية السليمة عندما كان يرسم إنسانًا قدر ما كان يفعل عندما يرسم الحيوان.. لماذا نعتقد أن «رينوار» هو من يرسم على جدران الكهف؟ لماذا نعتقد أنه بهذه البراعة؟ لن أتحدث هنا عن علم النقوش الكاذب **Pseudoarcheology**، و ما تبعه من علم التاريخ الكاذب **Pseudohistory**؛ فهو حديث

يطول -و لن نستطيع أن نمنع أنفسنا من التطرق له من آن لآخر- و دعينا نَعُدْ لكهوف تاسيلي، فلا يجب أن نترك هذه الكهوف قبل أن تشاهدي معي رسمة من عدة رسومات تكاد تكون لوحات عصرية فائقة الرقي و الروعة..

انظري لهؤلاء السيدات راكبات الدواب.. انظري لتسريحة الشعر و للملابس.. انظري لدرجات الألوان -يبدو أن إحداهن شقراء مثلًا- انظري للمنظور و علاقة حجم النساء بالدواب.. هذه لوحة رائعة بالفعل.. و ربما يرجع عمرها لأكثر من ٢٠٠٠ سنة ق.م.



تحتوي الجزائر على مناطق أخرى لنقوش إنسان ما قبل

التأريخ مثل جنب وهران التي ترجع نقوشها لما يقرب من خمسة آلاف عام ق.م.، إلا أن رسومها مالت للرمزية أكثر.

تادرات أكاكوس.



تجدين كهوف «تادرات أكاكوس» في ليبيا يا عزيزتي.. في صحراء فزان بالقرب من مدينة «الغاط» الليبية.. شاهدي معي نقوش الزراف.. تتنشر نقوش الزرافات على امتداد الصحراء الكبرى حاليًا.. تجدين منها في مصر حيث أحد مواقع النقوش يُدعى صخرة الزراف لكثرة ما احتوى من نقوش للزراف.. يبدو أن الصحراء كانت غنية بالحياة في ذلك الوقت.



و بينما يمتد عُمر هذه المنطقة لما يقرب من ١٢ ألف سنة ق.م. إلا أن نقوشها تتشابه مع نقوش تاسيلي لحد كبير، و هذا منطقي بطبيعة الحال يا صغيرتي.. فهؤلاء هم الأمازيغ الأوائل..هذه الثقافة التي تخطت حدود البلاد السياسية.. و أصرَّت على الاحتفاظ بهويتها على مدار التاريخ.

ودعينا قبل أن نترك هذه المنطقة.. نتأمل معًا هذا النقش

على الصخر.. فليس من المعتاد أن نجد نقوشًا في كهوف ما قبل التاريخ.



كهف لاس جيل:



و هو موجود في الصومال.. ربما نزوره يومًا إذا زرنا الصومال.. تعرفين محبتي لإفريقيا، و رغبتي القوية -التي أعجز عن تحقيقها- في زيارة كل بلادها. يرجع عمر النقوش فيه من ٥٠٠٠ لـ٢٠٠٠ عام ق.م.، وتميزت بشكل مختلف للرسم يميل للرمز، و الأشكال الهندسية مع الحفاظ على العلامات المميزة.

شاهدي معي الزرافة هنا.. بشكلها الإفريقي الجميل.. غلب

عليها الطابع الرمزي الهندسي.. و استخدم الفنان لونًا واحدًا، و لكنه اهتم بالتفاصيل المميزة، و هي هنا طول الرقبة و الأقدام، و شكل الرأس و الذيل.



تشاهدين طابعًا شبيهًا عندما رسم رجل الكهف الصومالي هذه البقرات.. لونًا واحدًا.. طابعًا هندسيًا.. عدم الاهتمام بتفاصيل الرأس، مع الاهتمام بالتفاصيل المميزة للحيوان مثل القرون و الضَّرْع.

فاصلة،

«وقف أمام الجدار مترددًا..

أخذ ينظر له كما لو كان يستوضح سرًّا ما..

يحاول أن يرى شيئًا لا يُرى بالعين..

يكاد يراه، و لكنه يستعصي عليه.. أمسك بالكف الصغير.. أغمض عينيه، و عقد ما بين حاجبيه..

لا فائدة.. زمَّ شفتيه، و ضغط بأسنانه على بعضها..

صمت قليلًا، ثم ألقى الكف الصغير بضيق و لا مبالاة..

زفر بضيق، و تحرك نحو فتحة الكهف.. جلس عند الفتحة يتطلع للبحيرة أمامه، و الخضرة على امتداد بصره..

زفر مرة أخرى.. لا يدري لِمَ يشعر بالعجز هكذا.. استمع لأصوات الحيوانات قادمة من بعيد.. قام مرة أخرى.. جلس أمام الجدار، و قد أسند ظهره للجدار المقابل.. أخذ يتأمل الجدار كأنه يترجاه..

عيناه مليئتان بالتوسل.. لم يشعر بقدومهن.. عادت النساء، و معهن بعض القمح و النباتات الأخرى.. سلَّمن عليه، فلم يرد.. بدا و كأنه لم يسمعهن من الأساس.. نظرن لبعضهن نظرات الفاهمات، الشاعرات بخطورة الأمر، ثم ذهبن ليبدأن في مهامِّهن استعدادًا لعودة الرجال..

وزعن المهام بينهن: منهن من بدأت طحن القمح، و منهن من بدأت تُعِدُّ النار في انتظار عودة الرجال بعد أن ينتهي

القطيع من الرعي.
نظرت له أصغرهن، و قد بدا عليها القلق.. تقلق عليه كثيرًا عندما يصبح في هذه الحال.. و تقلق أكثر؛ لأنه لا يراها على الإطلاق.. لا يرى إلا الجدار، و الرسوم التي يرسمها على الجدار.. تعرف أن الجميع يحترمه لذلك.. الجميع يهاب ما يمتلكه من سحر بين أصابعه.. الجميع يعرف كيف أنقذهم من الوحوش حين حبسها بسحره في النقوش على الحائط..

و لكن..

لِمَ لا يراها هي أيضًا؟

كل ليلة تستحم.. تلون وجهها بالأصباغ- و تتحمل الضحكات الساخرة لباقي النساء- لعله يراها.. و لكنه يجلس ساهمًا..

حزينًا..
لا يأكل إلا فيما ندر..

ينظر فقط للحائط كأنه ممسوس..

تشفق عليه..

تعرف أن عليه مسؤولية ضخمة، و أن هذا يثقل كاهله..

تريد فقط أن تساعده..

أن تخفف عنه ما يحمل مِن هَمٍّ.

جاء الرجال، و ألقوا عليه التحية..

فغمغم بشيء ما..

عرفوا ما به؛ فانصرفوا عنه..

نشطت النساء، و أعددن الطعام، و جلسوا يأكلون..

لم يأت معهم..

ذهبت إحداهن له بطبق طعام، فلم ينظر له..

نظرت الصغرى لها بِغِلّ..

كانت تريد أن تفعل هي ذلك.

دخل الليل، و استعدوا للنوم..

تركوه في ركنه الجنوبي البعيد، و معه مِشعل، و ناموا في أبعد مكان عن الضوء.

أيها الجدار اللعين.. لِمَ أنت عصي هكذا؟..

لا يعرف لماذا يعانده هذا الجدار هكذا..

-لِمَ لم تأكل؟

استدار للصوت ببطء..

وجدها بجواره تمسك الطعام، و تنظر له في استعطاف..

-لا بد لك على الأقل من شيء من الطعام.. ربما يساعدك ذلك.

صوت زئير ما يأتي من بعيد..

نظر لها صامتًا..

كأنه ينظر عبرها..

هذه النظرة تسحقها كل مرة..

ارتفع صوت تنفسها..

-دَ.. دعني أُطعمْك إذن.

استمر على نظرته الصامتة التي تخترقها..

لم تعد تستطيع المقاومة..

وضعت الطعام على الأرض بيد مرتعشة..

اقتربت منه ببطء، و قد ارتفع صوت تنفسها..

لا تستطيع أن توقف ارتعاد يدها، و لا شفتيها..

اقتربت أكثر دون أن يحرك هو ساكنًا..

بدأت في تقبيله، و أنفاسها الحارة تلفح وجهه..

وقعت عينه على شكل ظلها على الحائط..

لم يستطع تحويل عينيه عنه..

انتفض واقفًا كالممسوس، و أسرع لليد الصغيرة..

غمسها متعجلًا في اللون الأحمر، و بدأ يرسم مسرعًا على الحائط..

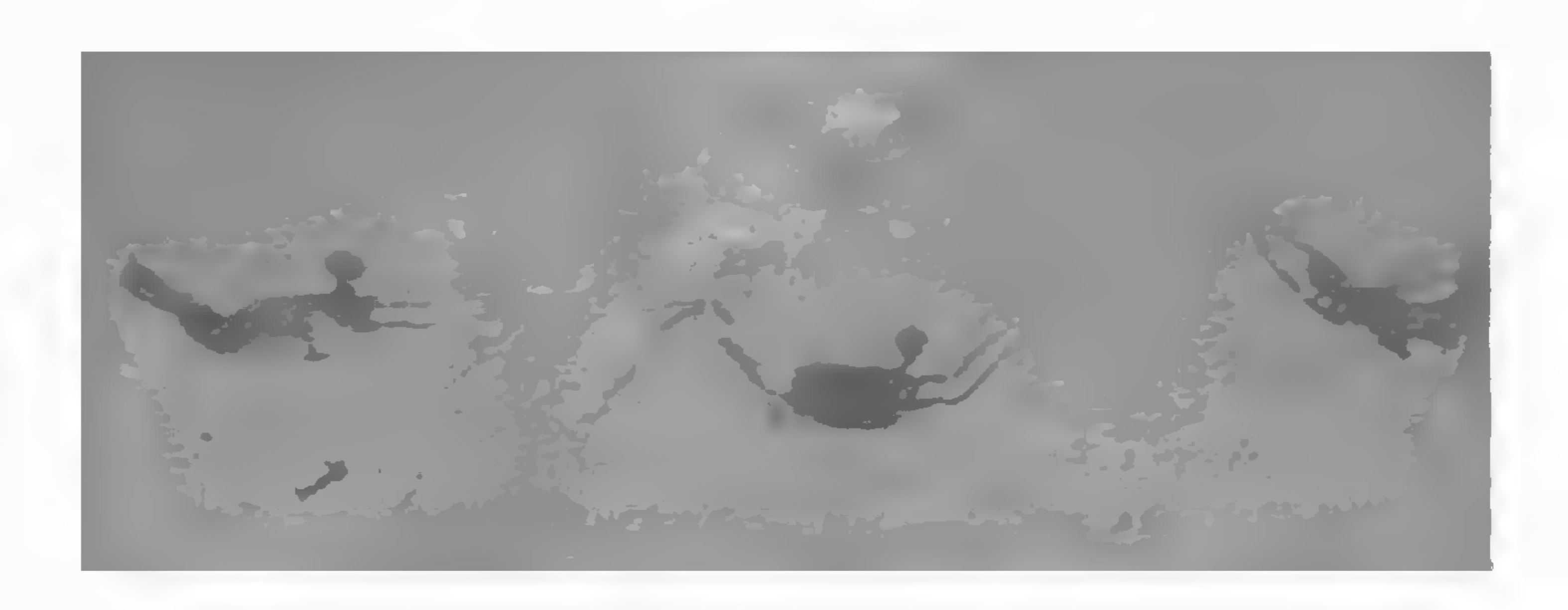
الآن تحدثت لي».

العوينات و الجلف الكبير

لعل العديدين لا يعرفون شيئًا عن الكهوف الموجودة في مصر؛ عادة ما تقفز آثار الفراعنة لرأس أي شخص يسمع اسم مصر، في حين أن مصر تحتوي على ما يقرب من ١٥٠٠ كهف في العوينات و الجلف الكبير فقط، كما صرح الدكتور «محمد حمزة»(33) إضافة لمنطقة «قارا» التي تقع على مسافة ٦٤٠ كم جنوب القاهرة، و التي أطلق عليها العالم «دان موريسون» »لاسكو النيل». و لعل أشهر الكهوف في منطقة العوينات و الجلف الكبير هما كهفا: «السبَّاحين»، و «الوحوش»، على الحدود بين مصر و ليبيا و السودان، و هو ما جعل الوصول لها صعبًا خاصة مع المحاذير الأمنية التي أغلقتها تمامًا أمام الزوار.

كهف السبَّاحين.

اكتشفه المجَري لازلو ألماسي، و يعود لما يقرب من ١٠٠٠٠ ق.م. و اكتسب اسمه من النقوش العديدة التي تبدو لأشخاص، و كأنهم يسبحون.



انظري معي لهؤلاء الثلاثة.. كأنهم يسبحون في الفضاء أو الماء بالفعل.

و الآن.. تعالي معي نتأمل هذا الرسم المبهر:

هذا رسم شديد الحداثة..

و لو نشرناه قائلين إن أي رسام حديث رسمه لصدَّقنا الجميع دون أي معاناة.. انظري للعلاقة بين الكف، و الأجساد الثلاثة الصغيرة أسفله التي تتقاطع معها في نفس المنطقة من الجسد -عند الخصر- و لشكلهم، و هم جالسون بأوضاع أذرعهم التي تجعلهم يبدون كمن يجدِّف بلا مجداف، أو كأنهم يشدون حبلًا غير مرئي.. انظري للشخصين السابحين المتقابلين اللذين يصنعان معًا قوسًا بجسديهما..

انظري للثلاثة الذين ينظرون لنفس الاتجاه، و لحركات الجسد التي تتفق مع السباحة لحد كبير:

في اليسار مفرود الرجلين، مَثنيّ الذراعين..

في الوسط مفرود الذراعين مَثنيّ الرجلين..

في اليمين -و في مقدمة السباحين- مفرود الذراعين و الرجلين

في هذه الرسمة.. تتحول الكف من مجرد كف شخص فرح بكفه، فأخذ يضعها على الجدار، و يلون حولها -مثلما نجد في المعتاد في كهوف ما قبل التأريخ- إلى معنى فني و درامي..

لقد حمَّلها الفنان بمعنى آخر هنا حتمًا.. هل كان يرمز بها لكيان ما يمتلك قدرة عظيمة؟ هل يرمز بها للشمس مثلًا؟

هل كان فردُ الكف في وجه الآخر يعبر عن المنع، أو الأمر بالتوقف في هذا الزمن أيضًا؟ و لو كان كذلك.. هل من الجائز أن نعتبر الكف في هذه الرسمة رمزًا لكل ما يقف أمام الإنسان؛ ليمنعه من تحقيق ما يريد تحقيقه في حياته؟ هل يصبح شكل السباح هنا هو رمز الإنسان في الحياة؟ و تصبح الحياة ما هي إلا سباحة في هذا الكون اللا متناهي.. أعرف أنني بالغت يا عزيزتي.. و لكني منبهر فعلًا بهذه الرسمة في هذا الزمن.

كهف الوحوش.

تعرفين هذا الكهف يا عزيزتي.. بالفعل؟

لا تعرفينه؟! غريب جدًّا!

ألم تشاهدي فيلم المريض الإنجليزي(34)؟

و لكنه فيلم رومانسي شهير.. كيف لم تشاهديه؟

لقد فاز بالأوسكار!

حسنًا.. لا تغضبي.. و لكن.. لم تشاهديه بالفعل؟!

حسنًا! حسنًا!

عمومًا.. لقد صوّروا بعض مشاهده بالقرب من هذا الكهف يا صغيرتي، و لكنهم لم يكونوا اكتشفوا ما به من جمالٍ و

عراقة بعدُ؛ اكتشفه المصري أحمد المستكاوي و الإيطالي جاكوبو فاجويني عام ٢٠٠٢؛ لذلك يدعونه أيضًا كهف المستكاوي-فوجيني؛ نسبة لمكتشفَيْه المصري و الإيطالي.

و لكن.. دعينا من الحديث عن الفيلم يا عزيزتي، و لنرَ معًا بعض رسوم كهف الوحوش التي ترجع لما يزيد عن ٧٠٠٠ ق.م.:



ترين معي الطابع الذي يشبه طابع السبّاحين أيضًا:

لا زال رسامنا يستخدم لونًا واحدًا، و لا زال بعض المرسومين يَبدون كما لو كانوا يسبحون طائِرين في الهواء.

الكهفان قريبان من بعضهما، و في نفس الوادي- وادي ساورة- لدرجة أن العلماء يسمون كهف السباحين كهف ساورة١، و يسمون كهف الوحوش كهف ساورة٢؛ ربما كان

رسامًا واحدًا مَن رسم فيهما، أو لعلها مدرسة رسمٍ ما انتمى لها فنانو المنطقة في عصور ما قبل التأريخ.

هل يرقص هؤلاء الأشخاص؟



يبدو لي أن هذا هو ما يفعلون.. أم لعلهم يتضرعون معًا لإله ما.

عمومًا.. إن العلاقة بين الرقص، و الطقوس الدينية علاقة مُغْرِقة في القِدم.

لاحظي معي الكفوف الصغيرة في اللوحة، و لكن لا! لنناقش هذه الكفوف في رسمة أخرى أوضح، فقد أثارت العديد من اللَّغَط.



رسمة أخرى احتوت على كف ما، و لكني لا أرى فيه أي إشكال.. ألا تتفقين معي؟ ربما يكون كف طفل، و لكنه طبيعي، لا مشكلة فيه.

آها.. هذه هي الكفوف التي سببت الإشكالية..



مممممم.. بالفعل يا عزيزتي.. هذه الكفوف أغرب من أن تكون كفوف إنسان.. و لا حتى كفوف طفل صغير.. هي أقرب لكفوف السحالي، أو أقدام التماسيح الصغيرة بالفعل كما قال العلماء(35).. ما هذا الرسم المُحيِّر؟!

و هناك مفاجأة أخرى: هذه ليست رسومًا لكفوف.
هذا حفر في الحجر.. نقشٌ عمره يصل لما يقرب من ثمانية آلالف عام قبل التاريخ.

تعمدت رسوم هذا الكهف -خاصة الجنوبية منها- تشويه الوحوش، و جعلت الناس تسبح في اتجاه وحوش مشوهة الرأس.

يبدو أن أسطورةً ما كانت تُولد هنا يا عزيزتي، و لكننا لا نعرف تفاصيلها بالضبط. تمتاز نقوش كهوف هذه المنطقة بوجود علاقة بين الأشكال و ما قبلها -على خلاف ما هو معتاد في نقوش الكهوف- و تبدو الحالة الفنية الرمزية شديدة الوضوح.إنهم أجدادي.. على ما أعتقد.

أعتقد أننا تحدثنا بشكل كافٍ عن الكهوف، و رسومها يا عزيزتي.. بشكل كافٍ لتقريب مفهومها، لا لما تستحقه بالفعل بالطبع. و دعينا لا ننسَ أن هناك كهوفًا فائقة الأهمية في مناطق الشام و العراق و الهند و باكستان، ترجع نقوشها لأزمنة شديدة القدم، و تستحق بالفعل نظرة متمعّنة؛ لما لبعضها من خصوصية للمنطقة تجعلها تبدو تمهيدًا لما قام بها من حضارات. يمكننا أن نتحدث عنها بشيء من التفصيل عندما نتطرق لتلك الحضارات العظيمة يا عزيزتي، و لكن الآن.. دعينا نختم هذا الحديث بكهف إيطالي يُدعى «ڤالكامونيكا».

ڤالكامونيكا Valcamonica.



تجدين العديد من النقوش لزهرة الكامونة **Camuna** الإيطالية هنا، ربما كان هذا سبب التسمية؛ فشق الكلمة قال **Val** مشتق من كلمة وادي بالإيطالية **Valle**، و شق الكلمة **camunica** من اسم الزهرة **Camuna**، و عليه تصبح ترجمة اسم الكهف -لو جاز لنا أن نترجم الأسماء- وادي زهرة الكامونة.. اسم جميل في الواقع.

انظري معي للنقش على اليسار..



حدث لغط كبير حول تفسير هذه الأزهار التي يبدو العديد منها على شكل الصليب المعقوف، و التي يبدو واضحًا أنها مقصودة. هناك اعتقاد أنها ربما تعبر عن نظام ديني يرتبط بالنظام الشمسي بشكل ما(36). و الآن، لاحظي معي شكل الشخص المرسوم على اليسار أسفل الزهرة.. يشبه لحد كبير ذلك المرسوم في كهوف تاسيلي على ما يبدو: شخص يحيط رأسه بغصون أشجار، و يمسك في يديه أسلحة بدائية ما. تظهر هنا أيضًا نقاط أو ثقوب سوداء ما.. محيرة بعض الشيء؛ فنحن لا نستطيع معرفة الغرض منها بعد، و تكرر ظهورها في العديد من الكهوف. ربما يكون

اهتمامنا بها مبالغًا فيه، و لكنها تعاود الظهور طوال الوقت، ظهرت للمرة الأولى قبل ٢٠٠ ألف سنة من الميلاد في الهند، و عادت للظهور في جنوب إفريقيا ٨٠ ألف سنة ق.م.، ثم في كهوف لينوكس و لاسكو ما يقرب من ١٢ ألف سنة ق.م.، قبل ظهورها هنا في إيطاليا ٢٥٠٠ ق.م.

غريب جدًّا!

٢٥٠٠ ق.م.؟!

كان المصريون قد بنوا المئات من الأهرامات بالفعل في هذا التوقيت.. منها أهرامات الجيزة الثلاثة فائقة الإبهار، و الإعجاز! غريب جدًّا أن يكون الإيطاليون لازالوا يعيشون في الكهوف في هذا التوقيت! ماذا تقولين يا عزيزتي؟ لا.. هم ليسوا ثلاثة أهرامات فقط يا عزيزتي، تحتوي مصر على حوالي ١٣٨ هرمًا مكتشفًا حتى الآن، تتنوع بين أهرامات ملوك، و أهرامات ملكات، و أهرامات تعبدية، منها المكتمل و المتهدم.

لاحظي أن شكل البناء الهرمي لا يقف على مصر..تجدينه أيضًا في السودان، و ليبيا، و الجزائر،و الهند، و الصين و المكسيك و العديد من البلاد و الحضارات..

و لكنها تأتي كلها لاحقة على الحضارة المصرية و يأتي

أقربها بعد الأهرامات المصرية بما يقرب من ١٠٠٠ عام. هناك نظرية تحاول الربط بين كل الأهرامات في العالم، و تدَّعي أنها جميعا بسبب احتكاك بمصر أو هجرات منها، و لكنها تبقى بلا إثبات على الإطلاق في الواقع.

إن الحضارة المصرية مغرقة في القدم يا عزيزتي.. قديمة بشكل يصل للسخافة.. تفقد معها الأرقام قيمتها الحقيقية.. ٧٠٠٠ عام.. هل تتخيلين الرقم؟ عندما كنت صغيرًا، حين كنت أتحدث بانبهار عن أمريكا، كانت أمي -أطال الله عمرها، و وهبها الصحة- تحكي لي كيف وقف رئيس مصر الأسبق «محمد أنور السادات»-أعتقد أنك تعرفينه بسبب اتفاقيات السلام و حرب أكتوبر..أليس كذلك؟- في لقاء تلفزيوني ليباهي بمصر على أمريكا قائلًا: أمريكا إيه دي اللي كلها على بعضها من ٧٠٠ سنة؟!
إحنا ٧٠٠٠ سنة حضارة.

فهل الحضارة المصرية فعلًا تمتد لسبعة آلاف عام خلت؟
دعينا نتأمل معًا ما كان يحدث في وادي النيل.

عندما يتحدث علماء المصريات عن الحضارة المصرية القديمة، فإنهم يرجعونها لما يزيد عن ٥٠٠٠ آلاف عام قبل الميلاد، و هو رقم ضخم في الواقع، دعينا نسترجع معًا المحددات الثلاثة التي تحدد الحضارة التي وضعها د. «ياسر

شحاتة» في كتابه «إعادة قراءة التاريخ»:

- الزراعة.

- تجمعات سكانية وصلت للآلاف.

- الكتابة.

فهل نجد فعلًا هذه المحددات الثلاثة في مصر قديمة لهذه الدرجة؟

في الحقيقة.. إننا نستطيع إيجاد عنصرين منهما بكل سهولة في تجمعات حضارية سابقة على الأسرات بكثير، و هذان المحددان هما:

الزراعة و التجمعات السكنية.

و لهذا يحرص بعض علماء الآثار أن يدعوها مدنية، لا حضارة؛ فقد تكونت فيها المدن بشكل واضح، و لكن الكتابة لم تكن بهذا الوضوح، إن وجدت.

فدعينا نتحدث عن الحضارات التي سبقت الكتابة، إن جاز لنا أن نعتبرها كذلك، و ندعوها مدنيات. نحن الآن نشاهد العديد من المدنيات السابقة للتأريخ -الكتابة- حول وادي النيل، مثل:

دير تاسا، مرمدة بني سليم، البداري، الجرزي، العمري،

المعادي، نقادة الأولى و الثانية و الثالثة

اعتقد د. «سليم حسن» -ضمن مجموعة لا يستهان بها من علماء المصريات- أن المدنية الحضارية بدأت في الشمال، و يرجع ذلك لعدة أسباب، مثل:

اكتشاف العديد من المدنيات في صحراء الشمال -العمري، و مرمدة بني سلامة، و بقية اكتشافات الفيوم، على سبيل المثال- و التي لعبت الصحراء دورًا هامًّا في الحفاظ على معالمها، على العكس مما حدث مع المدنيات الأقرب للنيل، و التي دفنها طمي النيل المتجدد كل عام.

٢- تبدو المكتشفات في المدنيات الشمالية أكثر دقة، و أقرب للفن من المدنيات الجنوبية، فلم تظهر مثيلتها في الجنوب إلا -ربما- مع حضارة نقادة التي بدأت منذ ٤٠٠٠ عام ق.م. تقريبًا، و التي تعد امتدادًا لمدنية البداري التي تعد امتدادًا أو أختًا لمدنية ديرتاسا بدورها.

٣- منطق التجديد الحضاري: دعيني أحاول تقريب هذه النقطة لك..لماذا يختلف القدماء الذين سكنوا وادي النيل عن باقي شمال إفريقيا؟ من الصعب أن ندَّعي وجود أفضلية جينية، فقد تحدثنا من قبل عن أن كل البشر في إفريقيا لهم نفس الأصول، فما الذي تعرَّض له البشر في هذه المنطقة، و تسبب في اختلافهم الاختلاف الذي تسبب في ظهور

هذه الحضارة العظيمة؟ يعتقد علماء المصريات أن السبب الأهم هنا هو الهجرات العكسية من آسيا -خاصة العراق، و الشام- والتي منحت حضارة وادي النيل فرصة للتجدد الحضاري. تحدثنا سابقًا عن «الموشافيان» الذين هاجروا من مصر لـ«العراق» و الشام، و صنعوا ثقافة «الناتوفيان» التي استقرت هناك، و منها من هاجر لأوروبا.. و باستقرارها تعرضت لمتغيرات مختلفة أدت لتطورها الثقافي و المعرفي بشكل مختلف عن التطور الذي تطوره أولئك الذين بقوا في وادي النيل.

يعتقد العلماء أن هناك هجرات عكسية حدثت بعد ذلك من «الناتوفيان» عائدة لوادي النيل، حدث ذلك بعد تعرض «الناتوفيان» للعديد من المتغيرات، فكان هؤلاء المهاجرون الجدد هم الحجر الذي حرك المياه في وادي النيل، و تسبب في ظهور هذه الحضارة العظيمة المختلفة عن حضارات آسيا، و عن حضارات إفريقيا في نفس الوقت، و من المنطقي أن يستقر القادم من آسيا في المكان الأقرب له، و هو الشمال.

و هكذا ظهرت العديد من المدنيات الحضارية في الشمال، ربما أقدمها هي مرمدة بني سلامة(37)، وترجع لما يزيد عن ٤٥٠٠ ق.م.؛ حيث يصل بها بعض العلماء لما يتخطى ٥٠٠٠

ق.م.

يتحدث د. «سليم حسن» بالكثير من المنطق يا عزيزتي، تتسم موسوعته -موسوعة مصر القديمة- بالحيادية و الموضوعية العلمية الشديدة. إلا أن تطور العلم، و الوصول لتقنية التأريخ الإشعاعي باستخدام الكربون المشع تسبب في تغيير تلك النظرية، لقد بيّن لنا أن أقدم المدنيات في مصر ترجع للجنوب، في «دير تاسا»، و ترجع لما يزيد عن ٥٠٠٠ ق.م.،

و تكاد تكون الأم لمدينة «البداري»(38) الموغلة في القدم.
أو لعلهما أختان نشأتا معًا، و تشابهتا معًا، و اندمجتا معًا، و سلّمتا الراية من بعدهما لحضارة «نقادة»(39) بمنجزاتها الضخمة التي تؤرّخ بدايتها بما يقرب من ٤٠٠٠ ق.م. حين بدأت مدنية «نقادة الأولى».

لاحظي معي أن هناك تداخلًا بين هذه الأماكن و بعضها البعض على المستوى التصنيفي؛ لهذا يمزج العديدون بين «دير تاسا» و «البداري» -مثلًا- حيث يصنعون منهما مدنية حضارية واحدة.

دعيني أوضح لك شيئًا:

حين أتحدث عن مدنية حضارية، فأنا أعني حضارة متكاملة لها ثقافة، و نظام اجتماعي، و نظام حكم، و نظام دفاعي عسكري، و لها كل معالم الحضارة ما عدا الكتابة.

أما فيما يتعلق بالمدنية الحضارية، فهناك شرط هام لكي ندعوها كذلك: أن تتكرر في أكثر من موضع بشكل ملفت. أي أنها تعبر عن طريقة حضارية لمعيشة مجموعات كبيرة من البشر في أماكن متفرقة، و لكن في توقيت زمني واحد.

أي أن الاسم يعبر عن حضارة انتشرت في زمن واحد، و لها نفس السمات.

لماذا إذن ندعوها باسم مدينة أو مكان واحد، دونًا عن بقية الأماكن التي انتشرت فيها المدنية الحضارية؟ لماذا نقول مدنية «البداري» الحضارية، و لا نقول مدنية «جبلين» أو «طوخ» أو «القطارة»؟

حسنًا.. درجت العادة بين العلماء أن يسموا المكتشفات منسوبةً لأول مكان اكتشفوه فيها، و لمّا احتوت «البداري» على أقدم اكتشاف له هذا القِدم، و امتلك هذه الصفات، أطلقوا على كل ما يتشارك معها السمات «حضارة البداري»، أو «مدنية البداري»، أو «ثقافة البداري». لقد استطاع علماء الحفريات أن يكتشفوا ما يقرب من ٤٠ موقعًا أثريًا لمدنية «البداري» يا عزيزتي، و لِما يقرب من ٦٠٠ مدفن. ظهرت من

خلالها العديد من سمات أهلها و حياتهم و ثقافتهم و عاداتهم الدينية التي يظهر أن الحضارة المصرية القديمة في عهد الأسرات تتأثر بها بشكل واضح.

- عزيزتي.. لقد انفرد وادي النيل بمؤثرات عديدة قادمة من العديد من النواحي:

- إفريقيا و ثقافتها.. مثل مدنية وادي حلفا المغرقة في القدم.

- و مؤثرات مهاجرة من الناتوفيان من بلاد ما بين النهرين.

- و مؤثرات من شمال إفريقيا.. أمازيغية كما يدعوها العديدون.

إضافة لتطور المدنية الطبيعي حول وادي النيل.

فنشأ جنس جديد انصهرت فيه كل هذه الثقافات، و نشأت هذه الحضارة العريقة.

لاحظي معي أن كل هذه المدنيات -جنوبية أو شمالية- ترجع للعصر الحجري الحديث، و كلها يظهر فيها معالم واضحة للتطور، و بدايات الحضارة. لا أريد أن أتسبب في إصابتك بالصداع بالحديث عن التفاصيل، و لكن معالم مدنية هامة ظهرت في هذه العصور الموغلة في القدم.

فظهر في مدنيات الشمال الاستخدام الدقيق للحجارة في صنع الأسلحة، كما استخدموا العظام لمساعدة الحجارة في صناعتها، و ظهرت السكاكين ذات الوجهين، و السكاكين القصيرة ذات الطرف المستدير، و الحراب ذات اللسانين.

و ظهر النسيج.. خشنًا، و لكنه فعال.

و منذ ذلك الوقت و المصري القديم يسكن الأكواخ منذ ذلك الوقت، أكواخًا تشبه العشش حاليًا بأشكالها المختلفة، احتوت على المواقد و الأواني الفخارية.

كما خزَّن الحبوب في أبنية من الطين أو في سلال الحصير الضخمة. و انتشر استخدام الفخار، فنجد الأطباق و الأكواب و الجِرار و الأباريق في الشمال و الجنوب.



و امتاز فخار البداري بوجود خطوط صغيرة متوازية تغطي سطح الإناء، دقيقة الصنع أحيانًا، و أحيانًا خشنة، كما تميز أغلبها بالحافَّة السوداء، و استمر الفخار ذو الحافة السوداء في الظهور في «نقادة الأولى».



و نجد الفخار الأسود في دير تاسا ربما لم يكن محكم الحرق، و لكنه -و لأول مرة- احتوى على نقوش.. و ليس انتشار الفخار غريبًا؛ فالمصري القديم هو أحد أقدم من استخدم النار بشكل واسع، و هو ما مكَّنه من صناعة الفخار مبكرًا.

بينما تميَّز فخار مرمدة بني سلامة بتنوع أكثر.

دعينا نتأمل معًا هذه الرأس التي وجدوها في مرمدة بني سلامة، و تم تأريخها في فترة تتراوح بين ٤٥٠٠، و ٤٨٠٠ ق.م. هي مصنوعة من الطين المحروق، وعليها بقايا تلوين، و بها فتحة أسفل الرأس.



مما يجعلنا نتساءل: هل عرف هذا العصر المعبودات ذات الرأس الآدمية؟ أم إن هذه منحوتة لعظيم من عظمائهم القدامى، أو من أسلافهم؟ لاحظي الثقوب في الرأس: هل كانوا يُثبتون فيها شعرًا ما، أم أن الرأس كانت بلا شعر مثل شكل منحوتات النساء في ذلك العصر، و التي سنتحدث عنها بعد قليل؟ الأمور تبدو غامضة هنا، نحن نتخبط في الظلام حرفيًا في عدم وجود الكتابة.



كانت مدافن المصري القديم- في هذا العصر- قريبة من القرية عند حدود الصحراء بعيدًا عن الفيضان، و كانت المقابر بيضاوية الشكل تشبه في تصميمها الأكواخ.

كانت الجثث توضع راقدة على جنبها الأيمن في الجنوب و الشمال. و كان الشمال يزيد بأن يضعها في وضع الجنين أيضًا، و كأنما يؤكدون على كونه سيولد من جديد، أو أن الحياة دائرة.. ننتهي مثلما بدأنا في بطون أمهاتنا. ترين في مقابر «مرمدة بني سلامة» أن يد المُتوفَّى كانت توضع

بالقرب من فمه، و أحيانًا نرى أحد أصابعه بين أسنانه، و كأنما هو طفل يمص إصبعه.. أعتقد أن هذا يؤكد على نفس الفكرة. ترين الجرار الموضوعة مع الميت، أليس كذلك؟ لقد وجدوا أيضًا بعض الحبوب و الصلايات و الآلات الحجرية في هذه المقابر، يبدو أن عقيدة البعث، و الحياة ما بعد الموت بدأت هنا يا عزيزتي.. لا تقلقي.. سنتحدث عنها بالتفصيل عندما يحين حينها. و كان وجه المُتوفَّى يتجه نحو مسكنه، لعلهم أرادوا الربط بين المُتوفَّى، و أهله بعد موته بهذه الطريقة.

و في حين لم يعلُ المقبرةَ أيٌّ بناء عند مرمدة بني سليم، فإن بعض الأحجار الدالة على القبر وجدت في مقابر «العمري».

و لننظر معًا بشيء بسيط من التركيز على مدنية «البداري»

«البداري»

دعينا نتحدث قليلًا عن مدنية «البداري»، فحتى الآن، هي أقدم تكوين مدني حضاري في تاريخ البشرية.. ربما يتم اكتشاف حفريات أخرى في أماكن أخرى ذات يوم، و تثبت أن هناك تكوينات حضارية أقدم، و لكن حتى الآن: «البداري» هي أقدم مدنية حضارية في التاريخ، و لأكون صريحًا معك: لا أعتقد أن هذا سيتغير.. دعينا نَرَ ما تقول عنهم آثارهم.

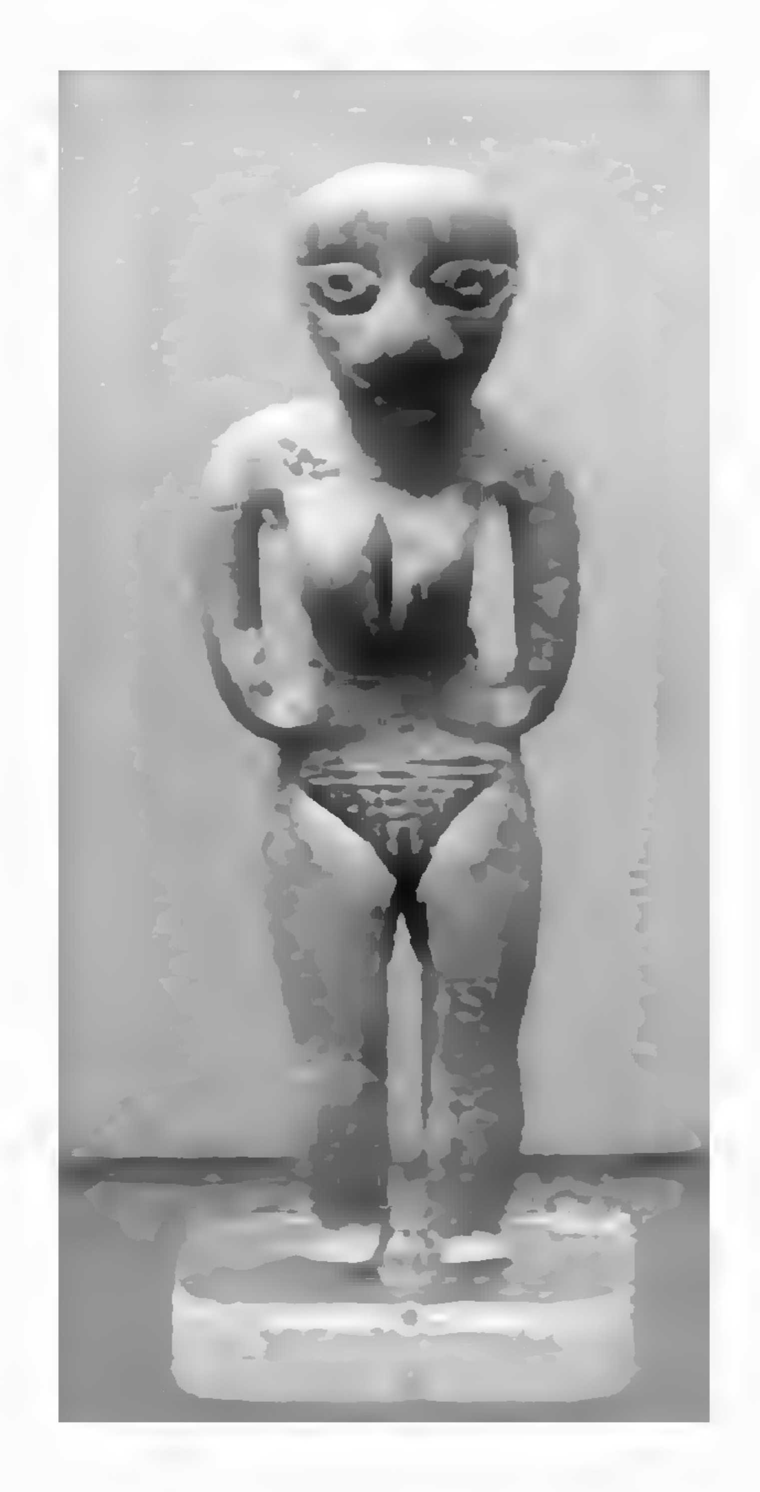


يبدو أن أهل «البداري» لم يكونوا طوال القامة. و كانت

أجسامهم ضئيلة إلى حد ما، و رؤوسهم تميل للطول.. في الحقيقة، لا يبعد هذا كثيرًا عنا في العصر الحالي، يبدو أننا أحفاد هؤلاء القوم بالفعل.

اعتمد أهل «البداري» على الصيد و الزراعة و تربية الحيوان، هكذا قالت لنا الحراب و الأسهم و القمح و العدس التي دفنوها معهم في مقابرهم. لقد وجدوا أيضًا أمشاطًا عاجية، و قد نُقشت على مقابضها زخارف حيوانية، و الدبابيس العاجية يبدو أنها كانت تُستخدم مع الملابس، كما وجدوا خرزًا، و أصداف بحر استخدمها أهل مدنية البداري في صناعة الأساور و القلائد.. هل تذكرين ما وجدوه في كهف بلومبوس؟

وجدوا أيضًا تماثيل لحيوانات و لطيور و تماثيل عاجية لنساء و كانت تبدو حليقة الرأس- كما ترين على اليسار- فسَّرها بعض علماء الآثار أنها تماثيل لإلهات، أو لشخصيات دينية هامة: كاهنات مثلًا.. هل تذكرين تماثيل النساء في العصر الحجري؟



أو ربما هي تماثيل تحلُّ محلَّ زوجة المُتوفَّى في قبره.



و انظري معي لهذا الوعاء الفخاري على اليمين، و المصنوع على شكل فرس النهر، ليس سيئًا بالنسبة لوعاء يكاد يتخطى الآلاف السبعة من العمر، فهم يُرجعونه لخمسة آلاف عام ق.م.

وجدوا أيضًا بعض الحيوانات مدفونة مع الميت، و الذي كان يُلَفُّ عادة بالحصير أو بجلود الحيوانات، و إن عُثر على صندوق من القش المجدول في أحد المقابر المنتمية لهذه المدنية، و لعلها أول محاولة لصنع تابوت في تاريخ البشرية. كان يُدفن الميت و رأسه في اتجاه الجنوب ناظرًا للغرب، و

كان يُدفن في الصحراء بجوار المدن.

هل تلاحظين معي كيف يدفنون أشياءهم مع موتاهم مثلهم مثل عهد الأسرات؟

من الصعب جدًّا أن نتجاهل هذه المدنية الحضارية، أو ندَّعي أنها غير مُثبتة؛ فما تكرَّر تقرَّر يا عزيزتي.

و الآن.. دعينا نتحدث قليلًا جدًّا عن «حضارة نقادة».

«نقادة»

قبل كل شيء: لماذا أدعوها حضارة لا مدنية مثل «البداري» و «مرمدة بني سلامة»؟ لأن الكتابة الهيروغليفية ظهرت هنا يا عزيزتي، فترجع أقدم النقوش الهيروغليفية المكتشفة لما يقرب من ٣٣٠٠ ق.م. في عصر نقادة الثالثة، بينما هناك من يعود بالنقوش لحوالي ٣٧٥٠ ق.م. في عهد نقادة الأولى. في جميع الأحوال، ظهرت الكتابة الهيروغليفية أثناء المدنية الحضارية النقادية، مما يمنحها كل السمات الحضارية بلا نقاش. العديد من القفزات الحضارية ظهرت في هذه الحضارة:

أصبحنا نجد الآن أخشاب الأرز و نجد اللازورد، و كلاهما غير موجود في مصر من الأساس، و هو ما يعني قيام هذه الحضارة بتبادل تجاري مع لبنان و بلاد ما بين النهرين، و يرجع البعض استيراد الأرز لـ٤٠٠٠ عام ق.م. تقريبًا، كا يرجعون استيراد اللازورد من بلاد الرافدين لـ٣٥٠٠ عام ق.م.، هل تتخيلين المسافة الزمنية؟

ظهرت السينيت في هذه الحضارة:



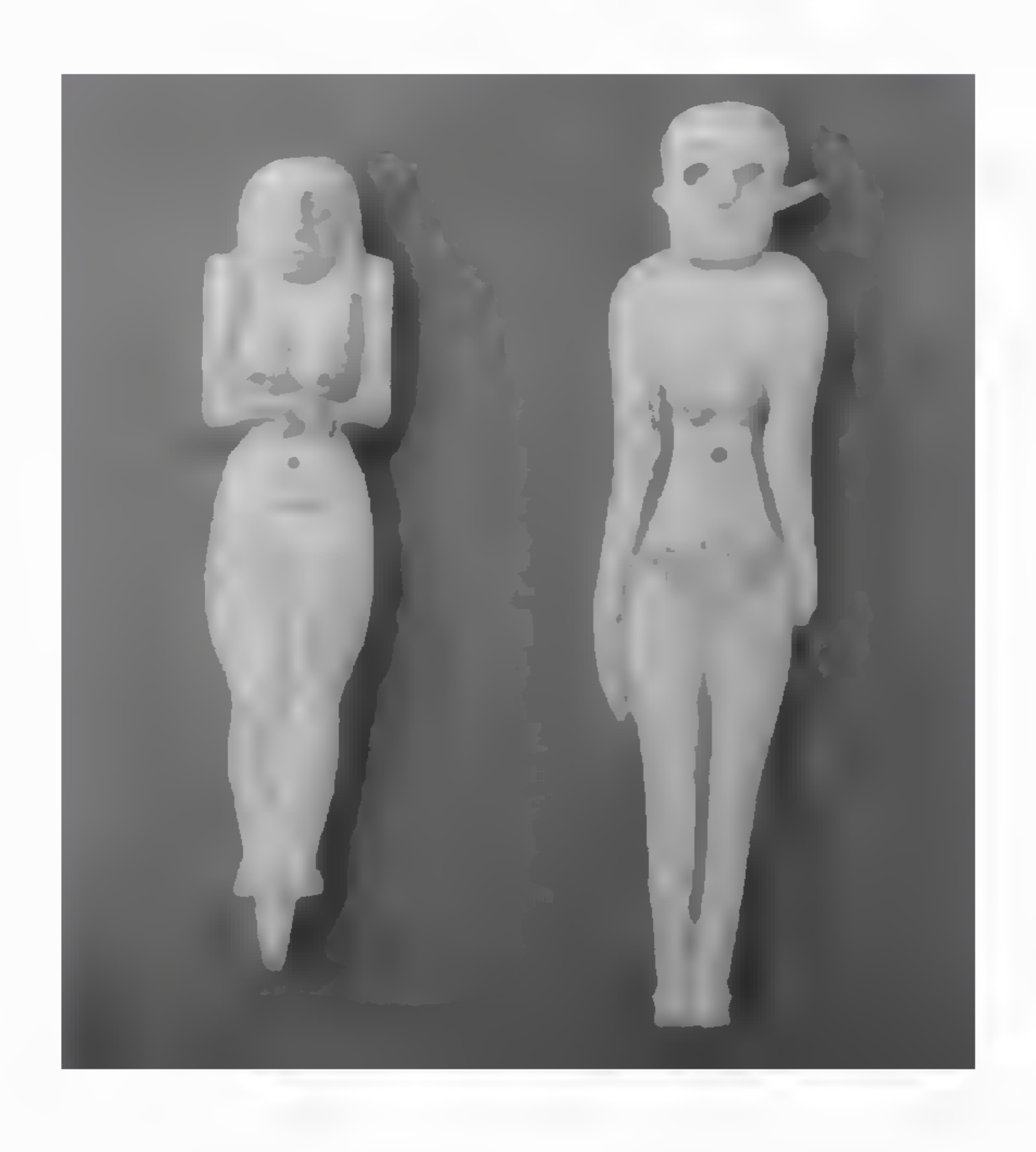
أقدم لعبة ألواح في العالم، ربما حوالي عام ٣٥٠٠ ق.م.، و كان يلعبها الفقراء و الملوك، و إن اختلفت خامات الصنع بالطبع.



ترين معي الملكة نفرتاري تلعب السينيت يا عزيزتي.

كما ظهر الفاينس: أقدم خرز مَطْلي بالسيراميك، و قفزت الموسيقى قفزة عظيمة بعد ظهور القيثارات المصنوعة من القصب المزدوج في نفس الفترة تقريبًا.

أما التماثيل، فقد استمرت في «نقادة الأولى» شبيهة لـ«البداري»، ترين معي التماثيل العاجية للنساء العاريات حليقات الرؤوس، كما ترين في التمثالين على اليسار.





ثم تطورت بعض الشيء في «نقادة الثانية»، و تم استخدام الفخار، و تغطية الجزء السفلي، انظري معي لهذا التمثال على اليمين: هل هو لراقصة، أم لامرأة تتعبد؟ عمومًا يبدو واضحًا أن الاهتمام بالتماثيل ازداد، و ربما ذلك لتطور العقيدة و إيمان المصري القديم بالبعث.

كان لاكتشاف النحاس دورٌ عظيمٌ في تطور مُعدَّات المصري، فعلى الرغم من ظهور الحديد، إلا إنه كان شديد الندرة، حتى كان يُوضع في القلائد مع الذهب. و يبدو أن اكتشاف النحاس كان في هذا العصر، و لا يُعرف على

وجه التحديد كيف حدث ذلك، و إن تبنَّى علماء المصريات نظريتين، تبنَّى كلَّ واحدة منها عالم مصريات مهم:

قبل كل شيء، لاحظي معي أن المصري القديم في ذلك العهد كان يستخدم «نترات النحاس» -التوتيا- كمادة للزينة، و دواء للعينين، يحفظهما من حرارة الصحراء، واستعملها الرجل و المرأة على حد سواء.

النظرية الأولى:

يتبناها عالم المصريات الأستاذ «برستد»، و يقول إن المُعدِّن الذي كان يعمل في سيناء في ذلك العصر، أشعل نارًا بجوار نترات النحاس، و غفل عن قطعة سقطت في النار و نام، و عندما صحا من نومه في اليوم التالي وجد النحاس، فعرف كيف يستخرجه.

النظرية الثانية:

يتبناها عالم المصريات الأستاذ «أليت سميث»، و يُرجع الاكتشاف لزوجة المُعدِّن حين كانت تتجمل بنترات النحاس، و سقطت منها قطعة في النار، و لم تستطع استخلاصها من النيران؛ فتركتها، و وجدت مكانها قطعة نحاس في الصباح.

في الحقيقة.. لا أعرف ما كل روقان البال هذا يا عزيزتي؟!!

أهدر العالمان الجليلان جهدًا كبيرًا لهما في تحليلٍ لا حاجة له على الإطلاق في الواقع.

و الله لقد كبَّرتم الموضوع يا شباب.

اكتشف المصري القديم النحاس في هذا العصر و كفى.. ما كل هذا الخيال؟!

المهم هو أن النحاس بدأ يحتل مكان الأحجار في صناعة آلات الحرب، و وجدنا آلات أخرى كالمقصات و الأزاميل و الخناجر المصنوعة من النحاس.

و تطورت صناعة الجلود و الأقمشة عن أقمشة البداري الخشنة. و تطورت صناعة النجارة الدقيقة.

و ظهر الفخار المزخرف المرسوم عليه أشكال الطبيعة و الحيوانات و المراكب، حتى تبدو شديدة الشبه بمركب الشمس التي ظهرت فيما بعد.. يبدو أن (رع) جاء من هنا يا عزيزتي.



و إن اتجه الاهتمام بعدها لصناعة الأواني الحجرية من الرخام، و هو ما قضى تدريجيًا على صناعة الفخار.

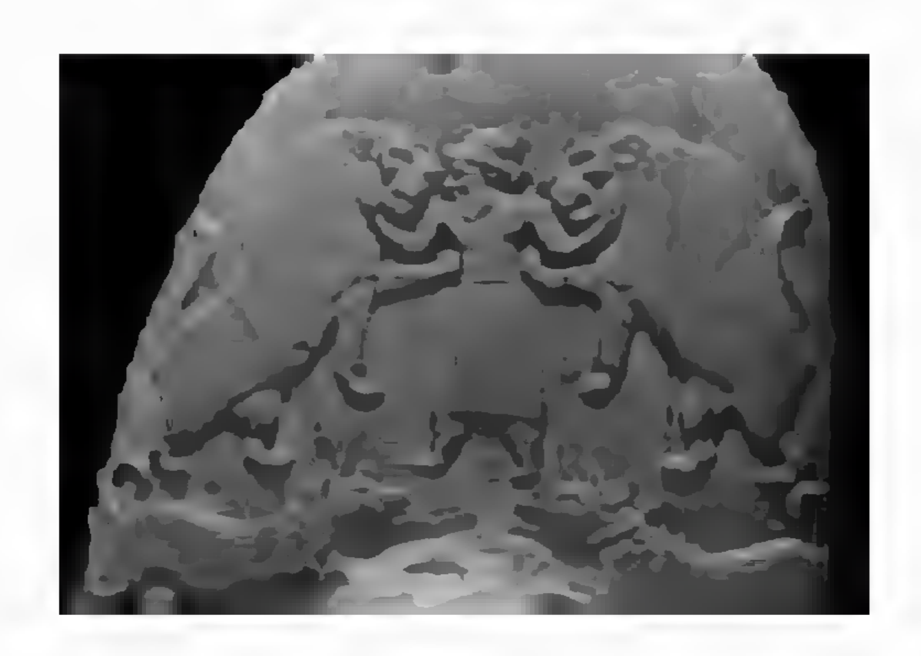
كما عرف هذا العصر الزجاج.

و استمرت زخرفة العاج في الأمشاط العاجية، و زاد عليها مقابض السكاكين الفاخرة، و لعل أشهرها و أكثرها مَدعاة للَّغط «سكين جبل العركي». حيث وجد الأثريون فيه سكينًا يعود لـ«نقادة الثانية»، و قد نُقش على أحد جانبي مقبضه نقش لمجموعة مصرية، و على الجانب الآخر نُقِش أسدا الليل و النهار المميزان لحضارة ما بين النهرين، و هو ما أثار

لغطًا وصل بالبعض للاعتقاد في وجود احتلال عراقي لمصر في ذلك العهد!







و هو ادّعاء غريب في الواقع:

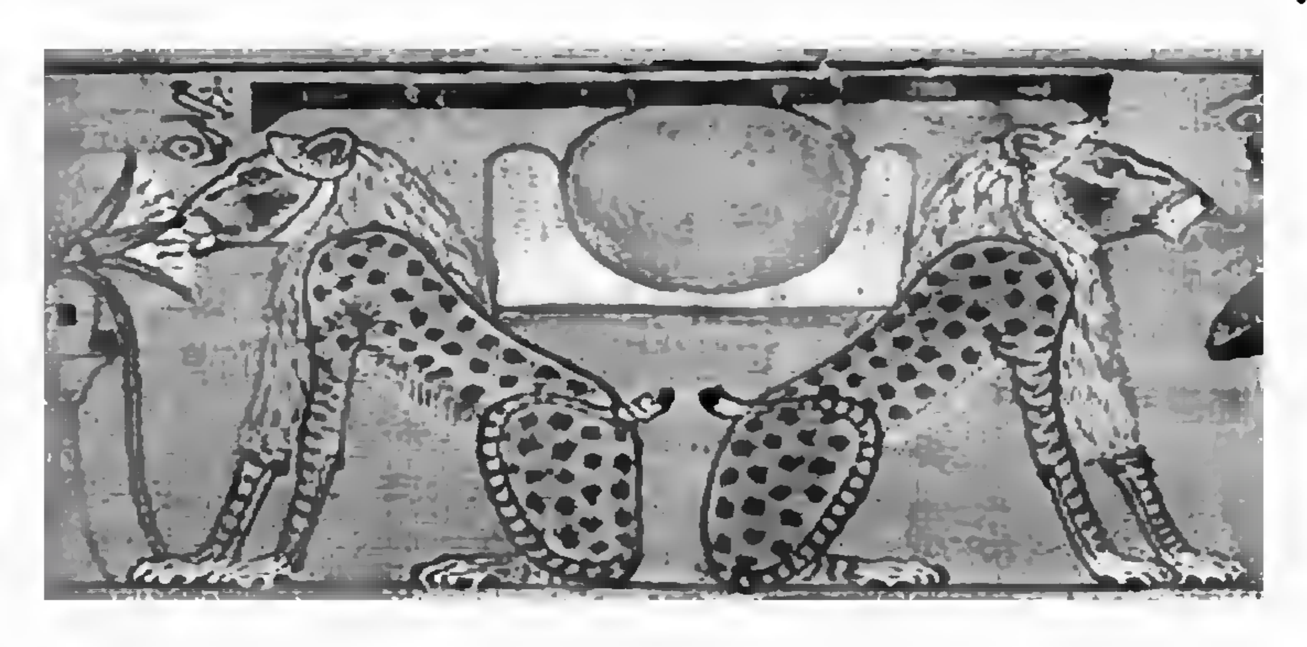


أولًا: من الصعب أن تُبنَى نظرية شديدة الضخامة كهذه - تقول باحتلال خارجي- اعتمادًا على دليل واحد فقط، فما بالك، و هذا لا يرقى للدليل من الأصل.

ثانيًا: هل كانت ظروف ذلك العصر تسمح بحدث ضخم مثل تحرك جيوش لكل هذه المسافة، و تستطيع في النهاية أن تحتل مدنية أخرى بهذا البعد؟

ثالثًا: إذا سلمنا بوجود هجرات ناتوفية عراقية لمصر في فترات سابقة على هذا، فهل هناك ما يمنع أن يكون هناك مهاجرون عراقيون في هذا العصر أيضًا؟

ألا يجوز أن يكون أحد المهاجرين صانعًا عراقيًا، و استقر في مصر و صنع هذا السكين؟



رابعًا: الأسد جزء أصيل في الميثولوجيا المصرية القديمة «سخمت» و «تفنوت» و «شو» على سبيل المثال، و هذا منطقي بطبيعة الحال، فأغلب الحضارات الأولى تضرعت لما تخافه، و كان الأسد أحد أشهر ما يخافون.

و تبدو صورة «تفنوت» و «شو»، و هما يحرسان الأفق بينما الشمس تشرق، شبيهة لحد بعيد بأسدي الليل و النهار، و لعل ذلك بسبب التأثر بالهجرة الناتوفية العراقية القديمة التي انصهرت داخل التركيبة المصرية، و كونت تلك الحضارة

العظيمة.

خامسًا: إذا اعتقدنا فعلًا بوجود تبادل تجاري بين مصر و مدنيات آسيا في ذلك العهد، ما المانع أن يكون الصانع الآسيوي صنع هذا السكين خصيصًا للتاجر المصري؟

لماذا نتطرف دائمًا في التفسيرات هكذا؟

أما الدفن في تلك المرحلة، فإننا نجده تطور هو الآخر عند النقاديين، فأخذ تكوين المقبرة خطوة أخرى نحو مقابر الأسرات عندما أصبح شكل القبر مستطيلًا، و -بطبيعة الحال- كلما علَت مكانة المتوفَّى كلما كبر حجم القبر.

و تطور شكل المقبرة مع الوقت؛ ليحوي رفًّا للقرابين، و بدأ بناء جدران للحجارة بالطوب اللَّبِن مما سهل توسيعها، و إضافة حجرات للقرابين بخلاف حجرة الدفن.

و لم يكن للقبر معلم خارجي، ربما تفاديًا للصوص.

ترين معي عادة غريبة لا نفهم سببها؛ الإناء العظيم الذي كانوا يُنكِّسونه فوق المتوفَّى!

الآن اختفت عادة لف الجثث بالحصير و الجلود، و أصبح الطبيعي أن يوضع المتوفى في بوص مجدول ثم تطور الأمر، و أصبح يوضع في توابيت حقيقية مصنوعة من

الفخار أو الألواح الخشبية.

و استمرت عادة دفن المتوفى في وضع الجنين، و إن تم دفنه على جانبه الأيسر عادة، و كان جسده يوضع موازيًا للنيل، و رأسه متجهة للجنوب عادة.

ظاهرتان غريبتان:

١- وجد الأثريون بعض المقابر و عظام المدفونين منفصلة عن بعضها، كما تم دفن العظام في غير ترتيبها الطبيعي.
كان هذا غريبًا على الدفن المصري في هذا العهد، و هو ما فتح الباب أمام التفسيرات الغريبة، حتى قال البعض باحتمالية وجود ظاهرة أكل لحوم بشر في هذه الفترة، و هو ما رفضه د. «سليم حسن»، و تحدث عن الجثث التي وجدت لم تُمَسّ في قرية «دشاشة»(40) على الرغم من كونها وجدت منفصلة العظام، ملفوفة في الكتان، و رجّح أن يكون هذا طقسًا دينيًا ما كان في عهد ما قبل الاسرات، و لم يستمر طويلًا.
عن نفسي لا أستسيغ الفكرة؛ فمن الغريب أن تقوم بدفن عظام ما أكلت، لِمَ تفعل ذلك؟

٢- كما وجد الأثريون ظاهرة غريبة أخرى، حيث انتشرت ظاهرة تكسير عظام الساعد، و لم تقف عند جثث الرجال

فقط، بل وجدوها في جثث بعض النساء أيضًا، و هي ظاهرة غريبة لم يفهم أحد سببها، و لم تستمر طويلًا هي الأخرى. عمومًا.. كان النمو الحضاري المصري عظيمًا في عهد «نقادة»، و انتهى بحضارة «نقادة الثالثة»، و ملوك مصر يتهيؤون لتوحيدها.. إنها الأسرة صفر يا سادة.

ربما بدأت الأرض تصبح شحيحة في هذا العصر.. الغابات العظيمة بدأت الصحراء تغزوها، و بدأت الحيوانات تقل في الظهور. ربما كان هذا هو الذي دفع المصريين لاستئناس الحيوان، و هكذا ظهر الرعي. و ربما تبلورت الحاجة للزراعة بسبب الاحتياج للنبات.

إن الإنسان كائن ماكر جدًّا يا عزيزتي.. دائمًا ما احتال على ظروف الطبيعة القاسية.. أم لعلها الطبيعة التي تتميز بهذا المكر، فتدفع الإنسان كل مرة؛ ليخطو خطواته الحضارية بمكرها.

و هكذا.. و في نهاية حضارة نقادة، نجد العديد من مدن الشمال، و كل منها مملكة في حد ذاتها، مثل: بحدت(41)، و بوزير(42)، و سايس(43)، بوتو، و غيرها، و قد توحَّدت جميعها في «نقادة الثالثة»- بعد العديد من الصراعات- تحت لواء بوتو(44).

و العديد من مدن الجنوب، كل منها مملكة في حد ذاتها هي الأخرى مثل: تينيس(45)، و نخن(46)، و نقادة(47)، و آبو(48)، و حنن نيسوت(49)، و غيرهم، وكل منها مملكة مستقلة بذاتها.

في «نقادة الثالثة» تجمعت كل مدن مصر العليا تحت ألوية ممالك جنوبية ثلاث: تينيس و نخن و نقادة. يعتقد العلماء أن الشمال كان يحكم مصر كلها، و لكن الجنوب انتفض، و أمسك بزمام البلاد بقيادة مينا نعرمر(50). و لكن ما نحن متأكدون منه أن زعماء مصر العليا.. و تينيس تحديدًا.. كانوا يُعدون العدة الآن؛ لتوحيد مصر تحت لوائهم.

لنتحدث٢

أربعة آلاف و مائتان و ثلاثة و خمسون كيلو مترًا..

هي المسافة التي يجب أن أقطعها بالسيارة لأصل إليكِ.. أربعة آلاف و مائتان و ثلاثة و خمسون كيلو مترًا!

تستغرق يومين و ست ساعات من القيادة المتواصلة.. دون نوم.. دون راحة.

تصبح ثلاثة آلاف و ستمائة و تسعة و تسعين كيلو مترًا إذا جئتك ماشيًا.. أقضيها في ستة و عشرين يومًا و ست ساعات من الحركة المتواصلة.. بلا نوم.. بلا راحة.

تطاردني لحظتنا الأخيرة معًا..

جاءت الحافلة؛ لتقلك للمطار.. جاءت مبكرة عن موعدها بساعة.. كنتِ عندها تتشاجرين مع موظف الاستقبال في الفندق- بلا مبرر حقيقي- و كنتُ أحاول أن أُهدِّئ الوضع.. و أتعجب في داخلي من شجارك الغريب.. عندها.. قيل لنا إن الحافلة أتت.. صمتٌ قليلًا..

و لكن.. أليس هذا مبكرًا؟

قلتِها بعينين قلقتين.

اعتذر موظف شركة الرحلات بأشياء مثل الطريق، و المسافرين الآخرين، و حالة الطقس، و الديناصورات المنقرضة، و آلهة الأولمب.. قال العديد من الأشياء التي لم أنتبه لها في الواقع..

لا أذكر إلا الصمت.. كان يحرك شفتيه.. يصلني صوته بشكل ما.. و لكنني لم أكن أسمع إلا الصمت.. توقفت شفتاه عن الحركة.. ساد الصمت حقيقيًا، و ثقيلًا.. اعتذرتِ لموظف الاستقبال.. حملتُ حقيبتك صامتًا.. و اتجهنا نحو الباب..

وقفنا نشاهد الرجل يضع الحقيبة فوق الحافلة.. ثم انفجرتِ في البكاء.. حاولت تهدئتك.. فارتميتِ في حضني، و أنت تصرخين باكية..

لقد سرقوا منا ساعتنا الأخيرة معًا..

استعجلك موظف شركة الرحلات؛ فانفجرتِ في وجهه.. صمتَ محرجًا.. التقت عيناي بعينيه.. اعتذرت له دون كلام، و أنا أربِّت على كتفك بعينين لامعتين.. ركبتِ الحافلة..

ألن تأتي معي للمطار؟

قلتِها ناظرة لي في توسل.

غير ممكن.. لا مكان في الحافلة.

أجاب موظف شركة الرحلات.

نظرتُ للكِ صامتًا.. عاجزًا.. و انطلقتِ الحافلة..

بقيت واقفًا للحظات، ثم تذكرت أن أتنفس.

تعرفين؟

هناك مقولة مبتذلة يقولها العشاق لبعضهم البعض:

أموت فيك..

أموت لأجلك..

أتلقى رصاصة لأجلك.

كلها تحولت لمقولات مبتذلة رخيصة من كثرة ما قيلت دون أن تحمل معنىً حقيقيًا.. الغريب..

أنني أعنيها حرفيًا.. لم أقلها.. و لكن عنيتها..

من المؤسف أنني لا أستطيع إثبات جديتي فيما يتعلق بها.. تمنعني آلاف الكيلومترات.. و مئات الساعات..

أربعة آلاف و مائتان و ثلاثة و خمسون كيلو مترًا إذا جئتك بالسيارة، و ثلاثة آلاف و ستمائة و تسعة و تسعون كيلو مترًا إذا جئتك ماشيًا.. بلا نوم.. بلا راحة.

لماذا أقول ذلك الآن؟

لا أعرف.. تقفز المسافات التي بيننا في رأسي من حين لآخر.. أحيانًا أتساءل: لو كنا في عصر المصريين القدماء.. هل كنا لنكون معًا؟

أعتقد أنك ما كنت إلا لتكوني أشورية تسكن في نينوى.. و أكون من ساكني طيبة.. بيننا آلاف مختلفة من الكيلومترات..

تحتاج لمئات أخرى من الساعات للوصول إليك.

....

دعينا من كل هذا، و لنكمل حديثنا عن القدماء.. الأجداد.. صانعي الحضارة.

متى بدأ الاهتمام بالحضارة المصرية القديمة

في الحقيقة.. إننا كلما ابتعدنا عن عصر الأسرات.. كلما قل اهتمامنا بهذا الإرث الحضاري العظيم. كان «الفُرْس» يحتلون مصر في نهاية عهد الأسرات، و هو احتلال كرهه المصريون جدًّا. و عندما أتحدث عن احتلال، فانا لا أعني فقط تغيُّر هوية الحاكم عن هوية الأغلبية المصرية، فقد حدث هذا في تاريخ مصر القديم أكثر من مرة دون أن يكون ذلك احتلالًا. كيف ذلك؟

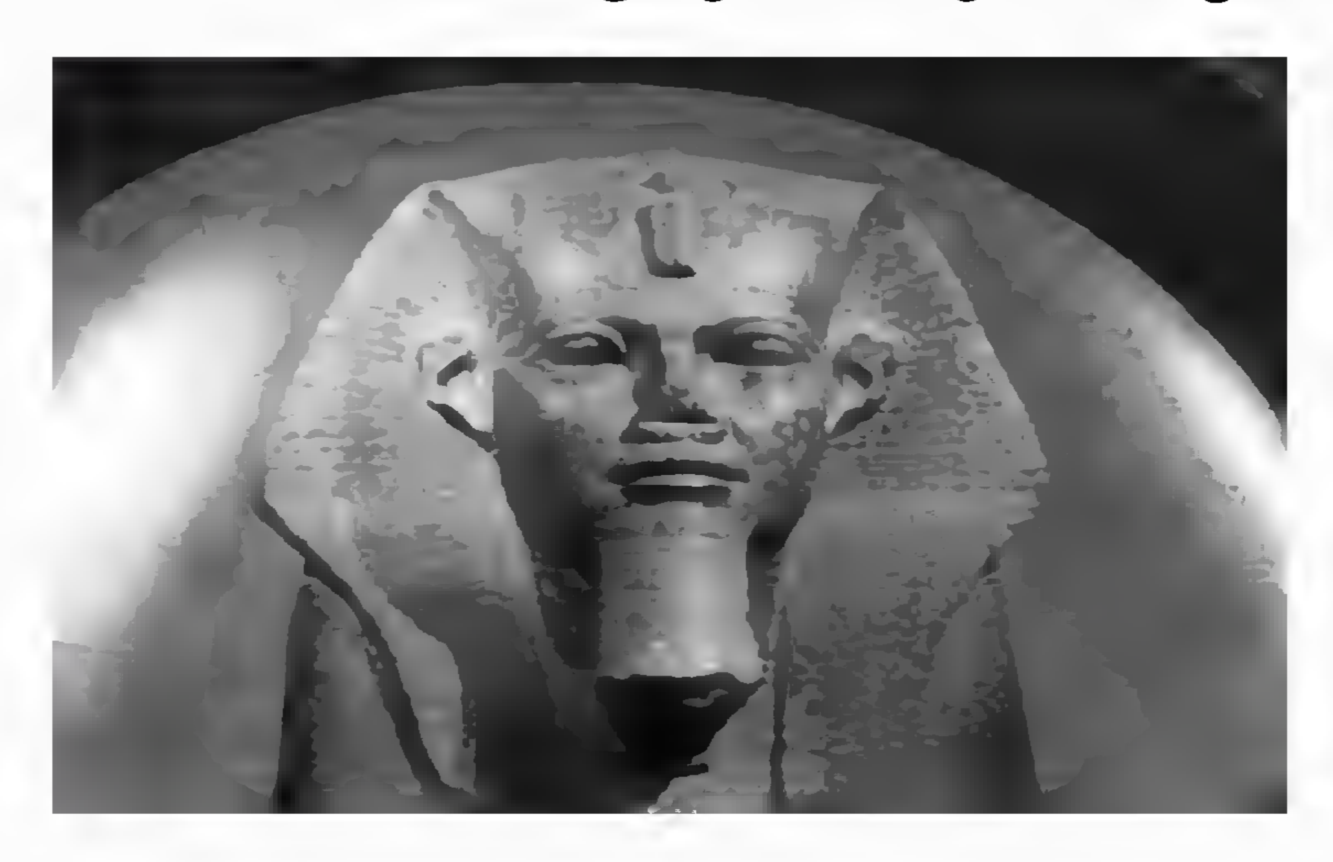
عزيزتي.. كانت مصر واحة عظيمة من واحات العالم القديم، حضارة جاذبة بكل ما تحمل الكلمة من معانٍ، و هو ما جذب إليها العديد من المهاجرين من القوميات الأخرى؛ سوريين و عراقيين و ليبيين و نوبيين جاءوا إلى هنا؛ ليعيشوا في أحضان هذا البلد شديد الرقي.

و من هؤلاء ظهر ملوك لمصر، اندمجت هوياتهم الأصلية في هوية المصريين، و صنعوا مجدًا عظيمًا لهم و لمصر.

تجدين مثل هؤلاء في الحكام صاحبي الأصول الليبية بعد الأسرة الواحدة و العشرين مثلًا.

لعل أشهرهم «شيشنق الأول» الذي يحتفل به بعض إخوتنا

الأمازيغ، و يدَّعون أنه هو من بنى الأهرامات!



و لا أعرف أي أهرامات بالضبط التي يعنونها في الحقيقة؛

تعرفين أن الأهرامات المكتشفة حتى الآن في مصر تقترب من ١٤٠ هرمًا، و إن كانوا يعنون أهرامات الجيزة الثلاثة، فقد بنيت قبل مجيئه للحكم بما يقرب من ١٥٠٠ عام، ولا يعيب هذا ذلك الملك العظيم في شيء بالطبع، و لكني أتعجب من هذا الادِّعاء فقط، إضافة لتعجبي من الادِّعاء بكون هذا الملك غير مصري.

في الحقيقة: هو مصري تمامًا؛ لقد استقر جدوده في إهناسيا من أجيال بعيدة جدًّا، يعتقد البعض أن ذلك حدث بداية من الأسرة السابعة، و لكن لو أردنا أن نتحدث عن

أقرب الفروض، فسيكون من «المشيش»، الذين جندهم «رمسيس الثاني»في جيشه، و الذين ينتمون لـ«التحنو»، و «التمحو»: القبيلتين الليبيتين اللتين كانتا تناوشان الحضارة المصرية دائمًا من الصحراء الغربية.

على أي حال.. سنتحدث عن ذلك بالتفصيل عندما نتطرق لهذا العصر العظيم؛ عصر الدولة الحديثة، و فترة الانتقال الأخير. تجدين ذلك أيضًا في الأسرة النوبية الخامسة و العشرين، ربما لم يحب المصريون أن تحكمهم النوبة، خاصة و أن عاصمة الملك كانت نباتا النوبية، و لكنَّ النوبيين اندمجوا تمامًا في الحضارة المصرية، و تأثروا بها بشكل كبير، و دافعوا عنها و حاربوا باسمها حتى هزمهم الآشوريون. و لا غرابة في ذلك؛ فالحضارة النوبية، و الحضارة المصرية القديمة هما امتداد لبعضهما، على الرغم من كل صراعاتهما المستمرة على امتداد تاريخهما، ولكنهما كأختين تغالبان بعضهما البعض، قد يعلو شأن إحداهما على الأخرى، و لكن يظل لهما نفس الامتداد. انظري معي للأهرامات التي ظهرت في النوبة بعد الأسرة الخامسة و العشرين:





أهرامات مروي على اليمين وهرم الملك بعنخي يسارًا

إلا أن هناك من احتل مصر، و لم يستطع المصريون محبته؛ الهكسوس، و الآشوريون، و الفرس.



أما الهكسوس، فعلى الرغم من تشبههم بالمصريين في كل شيء، إلا أن المصريين لم يهدؤوا حتى طردهم العظيم «أحمس الأول»، و دكَّ آخر حصونهم في «شاروهين» في فلسطين.



و أما الآشوريون، فقد لعبت الأسرة السادسة و العشرون دورها في التخلص منهم.

بدأت تابعة لهم، حتى استغل «بسماتيك الأول» انشغالهم بثوراتهم الداخلية، و قطع صلته بهم، و سعى لاستعادة مجد مصر. و تمكنت الأسرة السادسة و العشرون بالفعل من الصمود أمام محاولة البابليين، الذين جاؤوا بقيادة «نبوخذ نصَّر»؛ لاحتلال مصر، فصدهم «واح حب رع» بمساعدة المرتزقة اليونانيين، و لكن الفرس هم الذين نجحوا في القضاء على الصحوة الأخيرة للأسرة العظيمة السادسة و العشرين.

و رزحت مصر تحت وطأة حكم ثقيل؛ حكم الفرس، و لم يستطع المصريون الخلاص منهم، حتى تكفَّل بهم «الإسكندر الأكبر» في صراعه معهم على مستوى العالم.

و أثناء سعيه نحو فتح آسيا، حرر مصر من الفرس الذين كرههم المصريون بكل صدق؛ فنشأ عن ذلك أن أحب المصريون «الإسكندر الأكبر» بكل صدق أيضًا، فكان أول غازٍ لمصر يحبه المصريون حبًا وصل للتأليه، فنصَّبوه ابنًا للإله «آمون» في معبد سيوة؛ ليصبح أول ملك أوروبي يُؤلَّه.



و بعد وفاة «الإسكندر».. و تقسيم إمبراطوريته بين قادة

جيشه.. جاءت مصر من نصيب «بطليموس الأول»؛ ليصبح أول ملوك البطالمة في مصر، و يحكمها بذكاء شديد.



و على الرغم من حرص البطالمة على تكوين نظام ديني و قيادي شبيه بنظام حكم الأسرات.. إلا أن التغيرات أصبحت حتمية؛ فالحضارتان شديدتا الاختلاف.

قامت الحضارة المصرية القديمة على الحياة الأخرى.. على البعث بعد الموت.. على نظام «ماعت» الدقيق و الصارم الذي

يحمي العالم من الفوضى، و الذي يربح من يلتزم به الفرصة كي يُبعث بعد موته من جديد؛ ليحيا مع الآلهة في «إيارو»؛ الجنة التي تتكون من المزارع الرائعة الخُضرة.

و كان عقاب عدم الالتزام بتعاليم «ماعت» عند المصريين القدماء ألا يكون للمذنب حياة أخرى؛ إذ يلتهمه الوحش الأسطوري «عمعموت»، و يفقد فرصته في الخلود.

ربما لم يظهر عقاب في الحياة الأخرى عند المصريين القدماء إلا بداية من الدولة الحديثة، فكان المخطئ يعلق من قدمه، و قلبه متدلٍ خارج جسده.

كما ترين.. كان البعث و الحياة ما بعد البعث هما أهم شيء عند المصريين القدماء؛ لهذا تجدين جل آثارهم التي وصلتنا -تلك التي اهتموا بها، و بنوها على أحسن وجه- هي معابدهم، و مقابرهم: كل ما اتصل بنسقهم الديني.

أما حياتهم الدنيا، فلم يعنِهم خلودها بأي حال.

أما المقدونيون -الذين أسسوا الدولة البطلمية في مصر- فعلى الرغم من تعامل الإغريق معهم على أنهم برابر(51)، و على أنهم لا ينتمون لنفس القومية -حتى لقد منعوهم من المشاركة في الأولمبياد؛ لأنهم ليسوا إغريقًا، و تسببوا بذلك السلوك في غضب عارم لـ«فيليب الثاني»، والد الإسكندر

المقدوني- إلا أن معتقداتهم الدينية كانت واحدة، و قد قامت حضارة الإغريق على الحياة الدنيا في الأساس؛ لذلك لا تجدين لديهم مفهومًا واضحًا للجنَّة يا عزيزتي، و عندما يموت المرء، فسيذهب لهاديز -بلوتو- في مملكة الموتى؛ ليذوق الأمرَّين هناك من أنواع العذاب المختلفة، لا فارق هنا بين خيِّر و شرير؛ الكل يلقى من العذاب أشده؛ عليك أن تحصل على كل لذة ممكنة لك في الحياة إذن؛ لهذا تبدو آثارهم كلها متعلقة بالدنيا: القصور و الملاعب و التماثيل فائقة الحسية.

و لهذا لم يفهم الإغريق المنظور الديني المصري القديم، لم يستطيعوا هضم فكرة أن يَعبدوا حيوانات.. هذا هو ما رأوه: يعبد المصريون الحيوانات. و هي رؤية ساذجة بالطبع؛ فلم يكن المصريون القدماء يعبدون الحيوانات، بل كانوا يرون بعض الصفات في بعضها، تتماشى مع موصوفات المعبودات؛ جعلهم ذلك يصوِّرون المعبودات على أشكال هذه الحيوانات، دون عبادة لهذه الحيوانات على الإطلاق. فتصوير المصريين القدماء لـ«حتحور» على هيئة البقرة لم يمنعهم من ذبح البقرة، و أكلها، و تصويرهم لـ«سوبك» على هيئة تمساح لم يمنعهم من قتل التماسيح، و مثل ذلك ينطبق على كل المعبودات المصرية القديمة.

عمومًا..

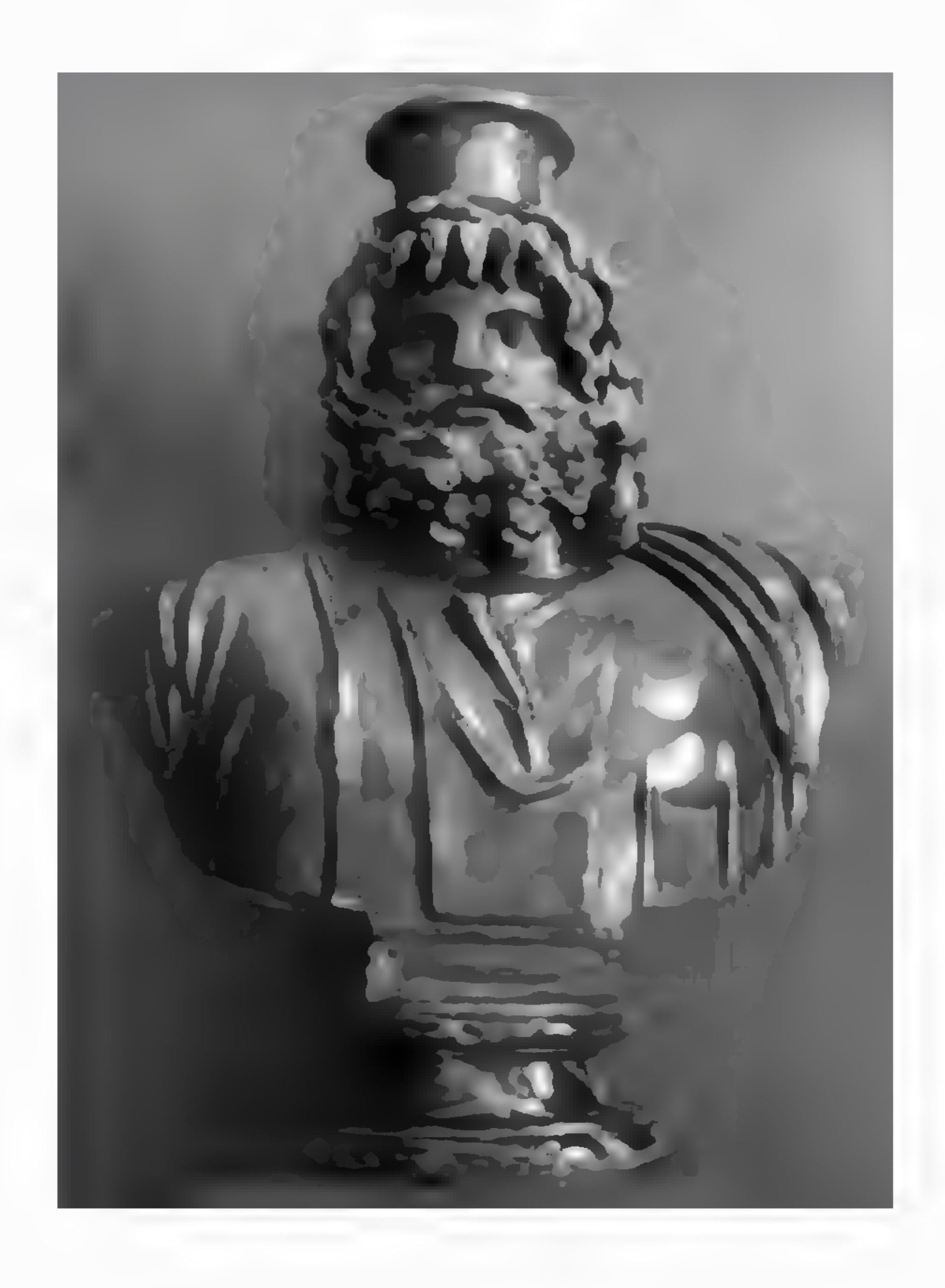
النسق الديني عند الفراعنة شديد التشعب، و سنتعرض له بالتفصيل فيما بعد.

و لكن دعينا نقل إن البطالمة تعاملوا مع الموروث الثقافي، و الحضاري لعصر الأسرات كطريقة يستخدمونها لإحكام سيطرتهم على المصريين فكوَّن «بطليموس الأول» لجنة مصرية يونانية تزعَّم الكاهن المصري «مانيتون» جانبها المصري.

بينما تزعَّم الكاهن الإغريقي «تيموثيوس» جانبها الإغريقي، و أمرهم بالخروج بنظام ديني يمزج بين الديانتين.

و يسمح له أن يتحكم في المصريين، فظهر ثالوث («سيرابيس»- «إيزيس»- «حربوقراط»)(52)

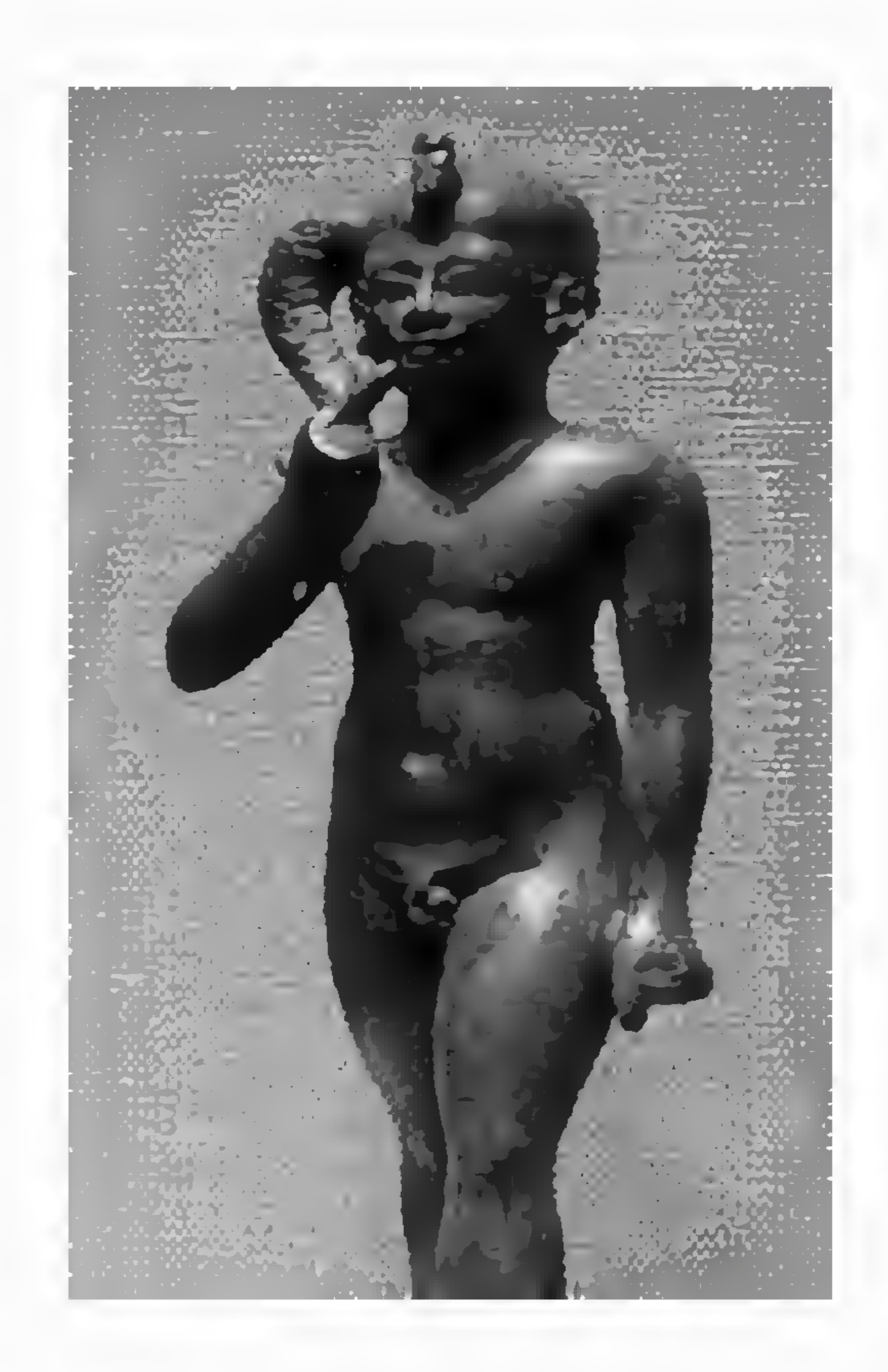
«سيرابيس»: و هو المزيج بين «أوزوريس» و «بتاح» و «العجل أبيس» كمعبودات مصرية و «زيوس»- يقول البعض إنه «ديونيسيوس» لا «زيوس»- كإله اليونان الرئيسي.





«إيزيس»: المعبودة المصرية الشهيرة التي اكتسبت مواصفات شكلية شبيهة بالإغريق، و استمرت عبادتها لأطول فترة لمعبودة في تاريخ البشرية، و توجد لها معابد في روما نفسها.

«حربوقراط»: و هو حورس الطفل.. بكل علامات الطفولة التي استخدمها المصريون القدماء:



- الضفيرة الظاهرة من يمين الرأس

- الجسد العاري

- إصبع السبابة المشير للفم

لم يفهم البطالمة أن التعبير الهيروغليفي يرمز للطفولة بمص الإصبع، و اعتقدوا أن حورس الطفل يشير للناس آمرًا بالصمت.. فاعتبروه إله الصمت، و الأسرار، و أسموه

حربوقراط.

أما الرومان، فبعد دخولهم مصر عام ٣١ ق.م. بعد موقعة أكتيوم، أصبحت مصر عندهم مصدر دخل فقط لا غير. و فقدت الكثير من العادات و المقدسات الدينية قيمتها في ذلك العصر، فنُهِبَ العديد من المقابر، و هُدِم العديد من الآثار، و طمَرتِ الرمالُ العديد منها دون اهتمام على الإطلاق من الرومان. و مع دخول الإمبراطورية الرومانية المسيحية زاد الإهمال. بل تعداه للسلوك العدواني؛ فقد تعاملت الديانة المسيحية مع آثار هذه الحضارة العظيمة كآثار لعبادة وثنية تجب محاربتها، فتم تشويه العديد من النقوش. مثل نقش «إيزيس» في معبد فيلة، و نقش «سوبك» في معبد «قصر قارون»، كما ترين في الصورتين التاليتين:



ترين الفارق بين نقش إيزيس على اليمين و النقش على اليسار و ترين تشويه وجه سوبك

و هكذا، عندما دخل العرب المسلمون مصر، وجدوا آثار هذه الحضارة في أسوأ أحوالها، لا يظهر لهم منها إلا ما هو شديد الضخامة، و تعاموا معها بلا مبالاة، مع الحذر من هذه الحضارة الوثنية -شأن العرب المسلمين في ذلك شأن كل حضارة نشأت على أساس ديني-. لم يقف حذر العرب عند الحضارة المصرية القديمة، فبالنسبة لهم -و من منظور ديني بحت- كانت الحضارة اليونانية أشد خطورة، و ذلك كون اللغة اليونانية لغة حية، هناك من يستطيع التحدث بها، و هو ما يشكل خطورة في إمكانية التأثر بها، و بما احتوته من فكر عقائدي وثني إلى حد بعيد. في حين بدت لهم الحضارة المصرية القديمة بعيدة كل البعد من التأثير على المسلمين؛ نظرًا لانقطاعهم عنها سواء على مستوى اللغة أو التفاصيل الفكرية الحياتية.

إلا أن هناك ظاهرة أخرى ظهرت مع بعض الحكام المسلمين لمصر حين أعادوا استخدام المعابد المتهدمة، و استغلوا أحجارها في صناعة منشآتهم المعمارية -القلاع و المساجد- فتسبب ذلك في وجود أكثر من سوق بيع الأحجار المتهدمة و الأعمدة الصالحة لإعادة الاستخدام.

إعادة التدوير:

تسبب ذلك في بعض الظواهر الغريبة، مثل وجود حجر يحتوي على نقوش فرعونية في خانقاه «بيبرس الجاشنكير». كما تسببت ظاهرة إعادة الاستخدام في وجود صلبان في بعض المساجد مثل الجامع الأزهر، و جامع «الناصر محمد بن قلاوون»، الموجود في القلعة -على سبيل المثال، لا الحصر- فالبنَّاء استخدم أعمدة من معبد بيزنطي متهدم على ما يبدو. حجر رشيد نفسه انتهى به الأمر كحجر بناء في طابية رشيد قبل أن يكتشفه «بوشار». ترين عدم التناسق بين الأعمدة واضحًا في العديد من الجوامع القديمة مثل أعمدة جامع «عمرو بن العاص»، حيث يبدو عدم التناسق واضحًا -حتى- في أعمدة الواجهة الخارجية(53)، ترينه أيضًا في أعمدة جامع»الليث بن سعد».. و هي -أيضًا- على سبيل المثال لا الحصر.

و لم تكن ظاهرة إعادة استخدام أحجار و أعمدة المعابد و المباني القديمة قاصرة على المباني الإسلامية، بل نجدها أيضًا في أعمدة الكنائس القديمة -الكنيسة المعلقة لمريم العذراء على سبيل المثال، و هي إحدى أقدم الكنائس في مصر على الإطلاق- مما يعني أنها ظاهرة ممتدة في التاريخ المصري، ورثها الحاكم عن سابقيه، بغض النظر عن اعتقاده

أو توجهه.



تربن اختلاف تيجان الأعمدة و أقطارها و أطوالها و ألوانها داخل الكنيسة المعلقة لمريم العذراء.

تسببت فكرة إعادة التدوير تلك في جعل آثار المصريين القدماء عرضة أكثر للإهمال و التدهور؛ فكلما تهدَّم منها آثار أكثر، كلما وجد البناؤون حجارة أكثر. و لم يقف ذلك عند الآثار القديمة، بل حدث هذا مع بعض المباني المعاصرة لهم، مثلما فعل «عز الدين أيبك» مع قلعة الروضة، حين هدمها بحجة استخدام حجارتها في بناء المدرسة المعزية، و مثلما فعل «المؤيد شيخ» مع «خزانة شمائل»الذي كان سجنًا حُبس

فيه «المؤيد شيخ» عندما كان أميرًا، و نذر إن نجا منه أن يهدمه، و يبني مكانه مسجدًا، و قد فعل ذلك بالفعل بعد توليه حكم مصر، و من الطريف أنه وضع له الباب النحاسي الذي كان لجامع «السلطان حسن»، و لم يقم -حتى- بمسح اسم «السلطان حسن» من عليه، و هو ما يدل على أنهم لم يكونوا يرون في فعل ذلك أي شيء يشينهم(54). و على هذا ظل حال آثار مصر الإهمال و التدهور، حتى تعرضت مصر لحدث ضخم تسبب في تغيير كل شيء: الحملة الفرنسية على مصر.

الحملة الفرنسية:

عام ١٧٩٨ م. كان العالم يمر بحالة صراع عظيم بين قوتيه العظميين في هذه الفترة؛ المملكة البريطانية.. و الجمهورية الفرنسية الناشئة. كانت فرنسا تتعرض لتغيرات سياسية عنيفة بعد أحداث الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، التي أطاحت «لويس السادس عشر»، و زوجته «ماري أنطوانيت»، و أطاحت معهما بالنظام الملكي بالكامل في خضم أحداثها شديدة الدموية و العنف. الأحداث التي بزغ في أحداثها نجم «نابليون بونابرت»، كقائد عسكري هام، بدأ يستحوذ على السلطة في البلاد شيئًا فشيئًا. كما قلنا كان الصراع بين فرنسا، و جارتها اللدود بريطانيا على أشده عام ١٧٩٨. و لمَّا

كانت بريطانيا تهتم كثيرًا لمستعمراتها في الهند، و تستمد منها الكثير من القوة التي تساعدها على السيطرة، قررت فرنسا محاولة قطع الطريق بينهما -إنجلترا و الهند- و لم تجد أفضل من مصر؛ لتقطع الطريق من خلالها؛ فالطريق يمر بها بطبيعة الحال. و لمّا كان لمصر دور شديد الأهمية في التحكم في كل المنطقة، كان خيار احتلال مصر هو الخيار الأمثل لفرنسا. و هكذا.. جاء الجيش الفرنسي بقيادة أحد أهم القواد العسكريين في التاريخ. لن نتحدث عما واجهته الحملة، و لا الفشل الذي مُنيت به؛ لتخرج من مصر -مجبرة- بعد ثلاث سنوات، و ثلاثة قواد مختلفين؛ لأن ما يعنينا -في الواقع- ليست الحملة العسكرية، ما يعنينا هو الحملة الأخرى التي جاءت مع الحملة العسكرية: مجموعة من العلماء الذين أخذوا يدرسون كافة التفاصيل في مصر.. حياة أهلها.. و تاريخهم.

دعينا لا نتحدث عن الصدمة التي واجهها «العلماء» المصريون عندما قابلوا علماء الكيمياء و الفيزياء الفرنسيين..

لقد وجد العلماء المصريون أنفسهم لا يعرفون شيئًا.. حتى ظنوا بالعلماء الفرنسيين السحر، و استخدام الجن.

يقص «الجبرتي» -مؤرخ هذه المرحلة- قصصًا محرجة عن العلماء المصريين، و صدمتهم أمام أبسط تجارب الكيمياء.

لقد لعبت هذه الصدمة دورها هي الأخرى في صحوة علمية، و إنسانية لاحقة ربما نتحدث عنها في يوم من الأيام. و لكن الذي يعنينا هنا شيئان:

١- كتاب «وصف مصر»، و هو أحد أهم منجزات هذه الحملة الفرنسية العلمية.

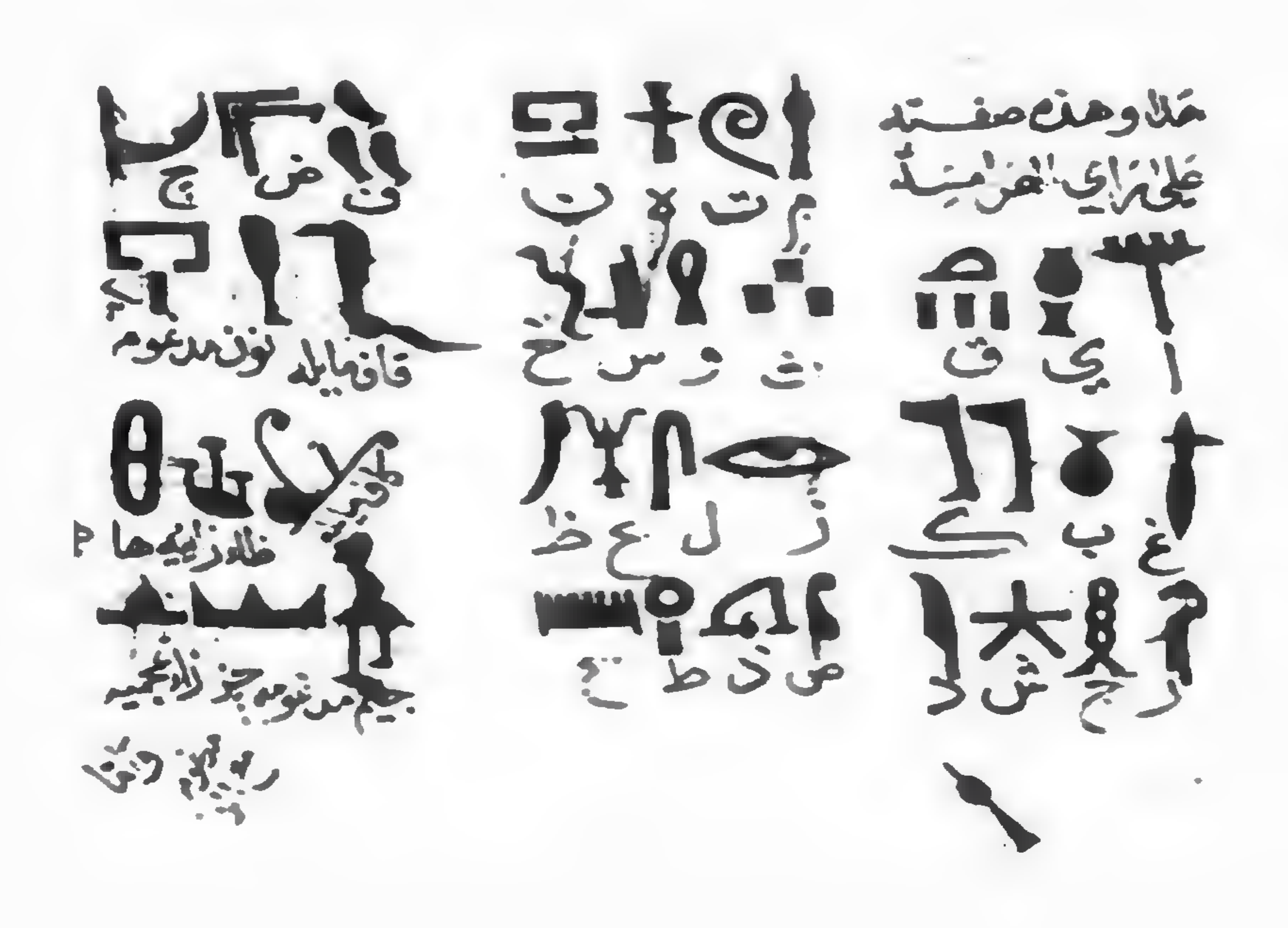
٢- اكتشاف حجر رشيد.

لعب كتاب «وصف مصر» دورًا عظيمًا في لفت أنظار العالم لهذه الآثار الباقية لهذه الحضارة العظيمة السابقة. لم يكن العالم يعرف عنها شيئًا سوى ما ترويه بعض المرويات الشعبية الغامضة.

لم يكن هناك من يفهم شيئًا من هذه النقوش الغريبة التي ملأت الحوائط. كانت هناك محاولات للفهم بالطبع، مثل محاولات «الأب كرشر» الذي فطن للعلاقة بين اللغة القبطية، و اللغة الهيروغليفية، و لكنه فشل تمامًا في الوصول لأي نجاح. لم يخل الأمر -أيضًا- من محاولات للعرب حققت نجاحًا نسبيًا لا بأس به، و لكنها لم تصل لنتيجة نهائية مرضية. و لأنني مصري عربي، دعينا نتحدث بشيء من التفصيل عن محاولات العرب، ثم نكمل ما حدث في الحملة الفرنسية.

العرب و الهيروغليفية:

أسماها العرب «لغة العصافير»؛ نظرًا لامتلاء نقوشها بالطيور. و لكن الكيمياء لعبت دورها هنا، فقد اعتقد الكيميائيون العرب أن الهيروغليفية تحمل أسرار المعادن، خاصة تحويل المعادن العادية لمعادن نفيسة. و على الرغم من هذه الفكرة المغلوطة، إلا أنها تسببت في مجهودات لا نستطيع أن نغفلها، جهود تحدث عنها د. «عكاشة الدالي» في كتابه «الألفية المفقودة، مصر القديمة في كتابات العرب»، و عن كونها سبقت ما هو معروف من بداية لعلم المصريات الحديث. جهود وجدناها في مخطوطات عديدة في مكتبات مثل المكتبة الأهلية بباريسالتي تضم جداول تكشف المقابل الصوتي العربي لبعض العلامات الهيروغليفية مثلما ترين يا عزيزتي:



محاولات ابن وحشية مع الكتابة الهيروغليفية

ترين معي أن العرب قد أدركوا أن الهيروغليفية ليست مجرد صور كما كان سائدًا بين كتاب أوروبا الكلاسيكيين، و إنما رموز دالة على معنى، بل توصلوا لمبدأين هامين من مبادئ الكتابة الهيروغليفية:

- بعض الرموز تعبر عن أصوات (مثل الحروف بمفهومها المعاصر).

- الرموز الأخرى تعبر عن الكلمة بطريقة رمزية تصويرية.

هناك العديد من المجهودات لعلماء عرب أمثال:

- «جابر بن حيان» في كتابيه «كشف الرموز» و «الحاصل».

- «أيوب بن مسلمة» الذي ورد أنه تمكَّن من قراءة بعض النقوش المصرية القديمة عندما كان يصحب الخليفة «المأمون» في زيارته لمصر.

- «ابن الفاتك» الذي أشار لمعرفة «بيثاجروس» للخطوط المصرية القديمة.

- «أبو القاسم العراقي المصري» في كتابه «الأقاليم السبعة».

- «المقريزي» الذي أورد بعض التراجم لبعض النصوص المصرية القديمة.

و على الرغم من أن جميعهم بذلوا مجهودات عظيمة، إلا أن هناك اثنين منهما لا يستطيع أحد أن يغفل جهودهما:

- «أحمد بن أبي بكر بن وحشية»:

الكلداني الأصل، النبطي الذي جاء من بادية الأردن؛ ليعيش في العراق في القرنين التاسع و العاشر الميلاديين. تجدين له العديد من المؤلفات في المجالات المختلفة؛ الكيمياء، البيئة، الزراعة، ثقافات ما قبل الإسلام.

لعل أهم مؤلَّف له عن أنظمة الكتابة القديمة بعنوان:

«شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام» و تحدث فيه عن الرموز الهيروغليفية و ترجمتها، يقول د. محمود حامد الحصري -الخبير الأثري- إن المستشرق النمساوي «جوزيف همرفون برجسترال» ترجم هذا المؤلَّف للإنجليزية، و نشره في لندن عام ١٨٠٦.

لاحظي معي يا عزيزتي أن هذا يسبق المجهودات العظيمة التي قام بها كل من «يونج»و «شامبليون»، و بذلك يكون «ابن وحشية» هو أول باحث على الإطلاق يتحدث عن رموز دالة على معنى في اللغة الهيروغليفية.

و لعل أهم ما توصل له هو معرفته للقيمة الصوتية لعدد من العلامات الهيروغليفية، إضافة -و هذا هو المبهر بالنسبة لي- لتوصُّله أن العلامات التي ترد في نهاية الكلمات هي مخصصات تساعد على تحديد المعنى.

- «ذو النون المصري»:

الصوفي الذي نشأ في صعيد مصر، في بلدة «أخميم»، في بداية القرن التاسع الميلادي. دعينا لا ننسَ أن العديدين كانوا لا يزالون يتحدثون بالقبطية في مصر ذلك الوقت، وأن القبطية هي حفيدة الهيروغليفية، و على ما يبدو كان «ذو النون المصري» يعرف القبطية، و بعض الديموطيقية، و بعض الهيروغليفية أيضًا و له كتاب «حل الرموز و برء

الأرقام في كشف أصول اللغة و الأرقام».

و على الرغم من عدم توصل العلماء العرب و المسلمين لنتائج نهائية ناجحة، إلا أننا لا نستطيع إلا التساؤل: لِمَ لا يتحدث أحد عن هذه المجهودات عندما يتحدث عن ترجمة الهيروغليفية؟

حتى د. سليم حسن لم يذكرها في موسوعته العظيمة عن مصر!

لا يستطيع المرؤ إلا أن يتعجب!

و لكن هذا السلوك الأوروبي كان متَّبعًا مع العديد من العلماء المسلمين.. تعرفين ما حدث مع «ابن النفيس»(55) و «وليم هارفي»(56) على سبيل المثال.. لا تعرفين؟!

ليس هذا موضوعنا على أي حال.. دعينا نعد لما حدث مع الحملة الفرنسية.

بدأ الأمر بـ«بيير فرانسوا بوشار» -جندي المدفعية في الحملة الفرنسية- الذي وجد حجر رشيد.

حجر رشيد هو حجر من الجرانوديوريت الأسود كُتب عليه مرسوم ملكي أصدره الكهان في مدينة «منف» عام ١٩٦ ق.م. في عهد «بطليموس الخامس»؛ ليشكروا الملك؛ لأنه رفع

الضرائب عنهم.

و المرسوم مكتوب بثلاث لغات:

- الهيروغليفية.

- الديموطيقية.

- اليونانية القديمة.

لم يكن أحد يعرف شيئا عن الهيروغليفية و الديموطيقية، و لكن اللغة اليونانية القديمة كانت معروفة، و يقرأها العديدون. سال لعاب العلماء.. عكفوا بكل حماس محاولين الربط بين اليونانية و الهيروغليفية. بدأت مجهودات لعلماء مثل «سلفستر دي ساسي»، و «أكربلاد»، اللذين اهتما بشكل أكبر بالنص الديموطيقي، و هي الكتابة الشعبية من الهيروغليفية.

و من بعدهما بدأ سباق غير معلن بين العالم الإنجليزي «توماس يونج»، و الشاب الفرنسي «جان فرانسوا شامبليون». بدأت محاولات «يونج» بعد أن حصل على نسخة من النقوش عام ١٨١٤ -بعد ثماني سنوات من نشر ترجمة كتاب «ابن وحشية»- و قد افترض أن الخراطيش[57] الموجودة في النص الهيروغليفي تحتوي على أسماء ملكية، و استغل وجود الخرطوشة الملكية للملك

«بطليموس الخامس»، و الخراطيش الموجودة على المسلة التي عثر عليها في «فيله» و عكف عليها. و لكن السباق انتهى «شامبليون»، و هو يخطو خطواته الأولى -التي تبعتها خطوات و خطوات- نحو فك رموز الهيروغليفية، عندما ترجم خرطوشة «بطليموس»، ثم «كليوباترا»، ثم العديد من الخراطيش المليكة. و بدأ الغموض ينجلي.. فجأة.. أصبحت الخرابيش على الحائط.. ملوكًا.. و ملكات.. و طقوسًا.. و حياة.

و هكذا وجد العالم مصدرًا هامًّا يعرف من خلاله مصر القديمة: المصريين أنفسهم.

دعينا نقف وقفة صغيرة هنا يا عزيزتي، فقد تعتقدين أن الأمر أصبح سهلًا ما داموا عرفوا ترجمة الخراطيش الملكية.. أليس كذلك؟

في الحقيقة.. الأمر يبدو سهلًا، و لكنه ليس كذلك على الإطلاق، و إلا كان السابقون على «شامبليون» لِينجحون هم الآخرون. إن ما فعله «شامبليون» كان عبقريًّا لحد بعيد، و لكن.. ما الذي يجعله بهذه الصعوبة؟

دعينا نتحدث قليلًا عن اللغة الهيروغليفية؛ لنعرف مقدار صعوبة ما حدث.

قد يبدو الكلام القادم لك مملًّا أو مضجرًا، و قد تستمتعين به.. لا أدري في الواقع.

فإن شعرت بالملل.. يمكنك أن تتخطيه، و تكتفي بمقولتي: «إنها صعبة، و إن ما فعله شامبليون -و رفاقه- يكاد يكون إعجازيًّا».

و إن أثار فضولك لتعرفي لماذا، فاقرئي معي الجزء القادم.



الهيروغليفية Vs كل لغات العالم الحديث

تعرفين يا عزيزتي؟

أعتقد أن الجميع يعرف العلاقة بين الفينيقية و اللغات اللاتينية، و بالتبعية كل اللغات المتطورة عنها؛ و الجميع يرى الفينيقية جدة كل هذه اللغات، و لكن الحقيقة أن الفينيقية تكاد تكون أم كل اللغات الحية حاليًا -أو فلنقل غالبيتها العظمى- و ليس لاتينية الأصل فقط. لماذا أقول هذا؟ لأن الأبجدية الفينيقية هي أول أبجدية تعتمد على وجود رسم يعبر عن حرف، و هذا الحرف يدل على صوت مجرد. على الرغم من أن اسم الحرف في الفينيقية كان يحمل معنىً في حد ذاته، إلا أنه ظل يعبر عن الصوت المجرد، فالرمز المعبر عن صوت الألف يحمل منطوق اسمه -ألف أو أولف- معنى رأس الثور، و لكنه يعبر عن صوت الألف مجردًا. و من تجمُّع هذه الأصوات المجردة -الحروف- تنشأ الكلمات، و الكلمات هي التي تحتمل المعاني. تسببت هذه القاعدة البسيطة في تقليل عدد الحروف بشكل كبير، و في تبسيط تعلم الكتابة، و في تقريب الكتابة لمدلولها الصوتي لحد بعيد. و من هنا.. ظهرت كل الكتابة التالية لها، فنرى بوضوح أن اللاتينية امتداد للفينيقية البونيقية -آخر أطوار الفينيقية- كما نرى أيضًا أن ترتيب الأبجدية العربية الأصلي -أبجد هوز حطي

كلمن.. إلخ- يتطابق مع ترتيب الأبجدية الفينيقية، بل و يتشابه اسم الحرف في العربية مع نظيره في الفينيقية لحد بعيد. انظري هذين الجدولين:

الحرف الفينيقي		الاسم والمعنى	الحرف العربي
[illegible]	[illegible]	ميم وتلفظ مو أي الماء الكثير أو يم أي البحر	م
[illegible]	[illegible]	نون وتعني الحوت	ن
[illegible]	[illegible]	سامك أو سمكة ولعلها تصحيف وتعني السمك	س
[illegible]	[illegible]	عين أي العين	ع
[illegible]	[illegible]	بي/فى أو الأصح فى أو بيه أي الفاه أو الفم	ف
[illegible]	[illegible]	صاده والأصح تصادة أي الصياد	ص
[illegible]	[illegible]	قوف أو قاف وتعني قصبة الكتابة	ق
[illegible]	[illegible]	ريش وتلفظ رأس أو روش أي الرأس [illegible]	ر
[illegible]	[illegible]	شين أي قوس السحاب أو ما شابه	ش
[illegible]	[illegible]	تاو علامة التقاطع وهي حرف التاء	ت

[illegible]	[illegible]	اسم	[illegible]
𐤀	[illegible]	[illegible]	ا
𐤁	[illegible]	[illegible]	ب
𐤂	[illegible]	[illegible]	ج
𐤃	[illegible]	[illegible]	د
𐤄	[illegible]	[illegible]	هـ
𐤅	[illegible]	[illegible]	و
𐤆	[illegible]	[illegible]	ز
𐤇	[illegible]	[illegible]	ح
𐤈	[illegible]	[illegible]	ط
𐤉	[illegible]	[illegible]	ي
𐤊	[illegible]	[illegible]	ك
𐤋	[illegible]	[illegible]	ل

و هكذا أصبحت العلاقة بين الأصوات المجردة، و الحروف -و بالتبعية العلاقة بين الكلمات و المعاني- أصيلة في الغالبية العظمى من اللغات الحية، بينما لم تكن الهيروغليفية كذلك على الإطلاق، و هو ما خلق إشكالية عظيمة عند كل من كان يحاول فك رموز الهيروغليفية.

لماذا؟

بسبب المرجعية المعرفية عند من يقومون بالمحاولة.

ما هذا الكلام المعقد؟

ماذا أعني بالمرجعية المعرفية؟

أعني أن كل من كانوا يحاولون فك رموز الهيروغليفية كانوا يتحدثون بلغات لها قواعد واضحة.. قواعد تعتمد على علاقة الصوت بالحرف، و علاقة المعنى بالكلمة؛ لأن كتابتها اعتمدت على لغات متطورة عن الفينيقية في الأساس.

و لكن هذه القاعدة -علاقة الصوت بالحرف، و علاقة المعنى بالكلمة- لم تكن منطبقة مع الهيروغليفية من الأساس.

على ماذا اعتمدت الكتابة الهيروغليفية إذن؟

بدأت الكتابة الهيروغليفية -مثلما قلنا سابقًا- رمزية تصويرية.. مثلها في ذلك مثل كل الكتابات الأولى، و ربما كان ذلك امتدادًا لرسوم رجل الكهف. و لكن.. ما الذي نعنيه بالرمزية التصويرية؟

نعني أن الأمر بدأ برسم صورة تعبر عما يراه الشخص، ثم بدأت الصور المتتابعة تحكي قصة، ثم بدأت الصور تأخذ دلالات صوتية لا علاقة لها بشكل الصورة. فأصبح رسم الفم

يعني أننا نتحدث عن الفم، و لكنه يعني حرف

الراء في الوقت ذاته، فتارة يستخدم بمعنى «فم»، و تارة يستخدم للتعبير عن صوت الراء. في الحقيقة.. لا يقف الأمر عند هذا.. دعينا نتحدث قليلًا عن الهيروغليفية بشيء من التفصيل(58). تُرى.. ما هي الصعوبات «الإضافية»؟

الصعوبات التي تواجه من يحاول قراءة الهيروغليفية:

١- اتجاه الكتابة:

فقد نجد الكتابة رأسية من أعلى لأسفل، و قد نجدها أفقية: من اليمين لليسار، أو من اليسار لليمين.. كيف نعرف الاتجاه إذن؟ حسب اتجاه الرمز المرسوم أو المنقوش، فإذا كانت متجهة لليسار بدأنا باليسار، و هكذا، و لكن.. ما الذي نعنيه باتجاه الرمز؟ نبحث عن الرسوم التي لها ظهر، و وجه، و يصبح الاتجاه الذي ينظر الوجه هو اتجاه بداية الكلام.

انظري معي للمثال القادم:



حين ننظر للنقش، فإننا نجد النقوش المعبرة عن الأصوات:

«غ»، و يعبر عنه هنا رسمة ذيل الحيوان -و هي رسمة العضو التناسلي الأنثوي في نفس الوقت-



ثم «ر»، و يعبر عنها هنا رسمة الفم



ثم «د»، و يعبر عنها هنا بكف اليد



يأتي بعدها العلامة التصويرية لطفل

، و هي رسمة لصورة تؤكد على المعنى المقصود من الحروف دون أن تنطق -سنتحدث عن العلامات التصويرية لاحقًا، لا تقلقي- و لكن ما يعنينا هنا هو أن وجه الطفل ينظر لليسار،

لو نظرنا لرسم البومة هنا

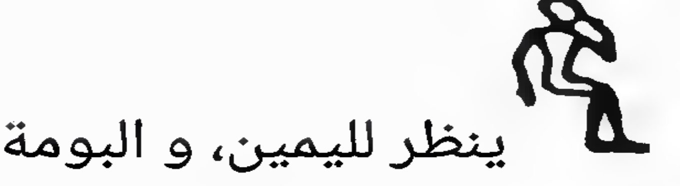
، و المعبر عن صوت الـ«م»، و معناه هنا أداة الجر «في»، لوجدناه ينظر لليسار هو الآخر.. لا لبس هنا: تبدأ القراءة هنا من اليسار لليمين، فنبدأ بالحروف، ثم العلامة التصويرية و نهاية الجملة.

أكرر.. لا تقلقي يا عزيزتي سنتطرق للعلامات التصويرية قريبًا، المهم أن اتجاه النقش هنا سيكون من اليسار لليمين.

و لكننا لو وجدنا النقش هكذا

، فإن قراءة النقش ستكون من اليمين لليسار.. فكما ترين:

الطفل



ينظر لليمين، و البومة

تنظر هي الأخرى لليمين.. الأمر واضح إذن: النص مكتوب من اليمين لليسار. و في الحالتين ستكون قراءة النص الصوتية واحدة الحروف الثلاثة»غرد»، و تعني طفل، يأتي بعدها العلامة التصويرية لطفل

، و هي تؤكد على المعنى المقصود من الحروف دون أن تنطق،

ثم صوت الـ«م»، و الذي تعبر عنه البومة هنا

، و معناه «في»،

ثم العلامة الصوتية الثنائية «پـر»

، و تعني: بيت.

و هكذا تصبح الجملة في الحالتين هي نفس الجملة:

«غرد م پـر»

و يكون معناها في الحالتين هو نفس المعنى:

«الطفل في المنزل»

٢- العلامات التصويرية Ideogram:

و هي صورة صغيرة تعبر عن المقصود، و لها حالتان:

تأتي مع مجموعة من الحروف للتأكيد عما تعبر عنه الحروف، و عندها تكون غير منطوقة -ليس لها صوت- و توضع بجوار الحروف المنطوقة، مثل:
«سش» أو عش

، و تكتب أيضًا

، فإننا نجد فيها صورة لا صوت لها هي صورة رؤوس البط في البحيرة

، و هي غير متدخلة في الصوت على الإطلاق، و لكنها أوضحت المعنى المقصود بكلمة «سش».
«ودپـو» أو الساقي

، و نجد فيها هي الأخرى صورة لا صوت لها هي صورة إناء الجعة

، و لكنها أوضحت المعنى المقصود باللفظ «ودپـو».

و تقوم العلامات التصويرية بدور مهم في تفادي اللبس

في المعنى في الحالات التي يتشابه نطق كلمتين فيها على الرغم من اختلافهما في المعنى، دون الحاجة للتفكير في السياق.

و ظاهرة تشابه النطق مع اختلاف المعنى هي ظاهرة معتادة في اللغات إجمالًا، لا الهيروغليفية فقط مثلًا:

«جُبن» بمعنى خوف، و «جُبن» بمعنى الطعام المشتق من اللبن.

تأتي العلامات التصويرية وحدها أحيانًا مع علامة رأسية « | »، و عندها تصبح العلامة التصويرية هي التعبير المختصر عن الكلمة مثل:

«شتيو»



بمعنى سلحفاة.

«ثا»



بمعنى فرخ.

«ر»

بمعنى فم.

«تـب»



بمعنى رأس.

٣- العلامة الصوتية Phonogram.

هي صور استوحاها المصري القديم من البيئة للدلالة على أصوات مجردة، و لها ٤ أحوال:

أحادية الصوت: تعبر عن صوت واحد، و هذه العلامات هي التي انتشرت على أساس أنها الأبجدية الفرعونية؛ حيث يعبر الرسم فيها عن صوت واحد فقط مثل:

النسر

= حرف الألف

الساق

= الباء

الضفيرة

= الحاء

ثنائية الصوت: تعبر عن صوتين متتاليين مثل:

حوض الزهور

= «شا»

الأرنب

= «ون»

السيور المربوطة معًا

= «مس»

ثلاثية الصوت: تعبر عن ثلاثة أصوات متتالية مثل:

النسر

= «موت»، و لاحظي معي اختلافه عن النسر المعبر عن صوت الألف

السحلية

= «عشا»

الجعران

= «خـپر»

السياج

= «شسـپ»

العلم

= «نتر»

رباط الصندل

= «عنخ»

رباعية الصوت: تعبر عن أربعة أصوات متتالية مثل:لفة البردي

= «مـچـات» كما في كلمات

و تنطق «مـچـات» بمعنى إزميل النحات.

٤- إشكالية العلامة الصوتية المضافة:

في بعض الأحيان تضاف علامة صوتية أحادية للعلامة الصوتية الثنائية.. تعبر عن الشق الأخير للعلامة الصوتية الثنائية، و لكنها لا تُنطق مثل:

السيور المربوطة معًا

تنطق مسو كما ترين، فإن الشق الأخير منها هو السين، فلو أضيفت علامة «قطعة القماش

، و الدالة على السين؛ تصبح التركيبة

، و لكنها تنطق مس كما هي دون إضافة صوتية.. فقط تأكيد على النهاية. و مثلها مع «ون»

 بمعنى الأرنب، فإن إضافة علامة «موجة المياه

، و الدالة على النون لها؛ لتصنع التركيبة

لا يجعلها تنطق ونن، بل تظل تنطق «ون» كما هي.

و قد تُضاف علامتان أحاديتان لعلامة ثلاثية: تكرر شقيها الأخيرين، و لكنها تظل لا تنطق أيضًا مثل:

التي تساوي

، و كلتاهما تنطق «عنخ»

و

التي تساوي

، و كلناهما تنطق «نتر»

٥- المُخصِّصات Determinatives:

علامة ليس لها قيمة صوتية منطوقة، توضع في آخر الكلمة؛ لتحدد مجال دلالة الكلمة، و باختلاف المخصص، يختلف معنى الكلمة كلية، على الرغم من كونها لها نفس الصوت، و نفس الرسم فيما عدا المخصص، مثل:

كلمة «چنب»

إذا جاء معها مخصص رجل يزحف

أصبحت

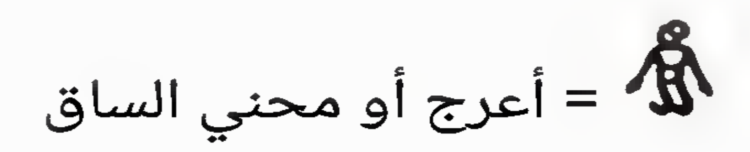
، و أصبح معناها أعرج أو محني الساق، و إذا جاء معها مخصص خبز

أصبحت

، و أصبح معناها خبز تقدمه.

«چنب»

+ مخصص رجل يزحف



= أعرج أو محني الساق

«چنب»

+ مخصص خبز

= خبز تقدمه

أيضًا كلمة «نهت»

إذا جاء معها مخصص شجرة

أصبحت

، و أصبح معناها شجرة جميز، و إذا جاء معها

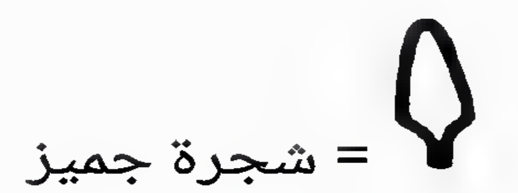
مخصص منزل

أصبحت

، و أصبح معناها ملجأ أو مأوى.

«نهت»

+ مخصص شجرة



= شجرة جميز

«نهت»

+ مخصص منزل

= ملجأ أو مأوى

و كلمة «غن»

إذا جاء معها مخصص قماش

أصبحت

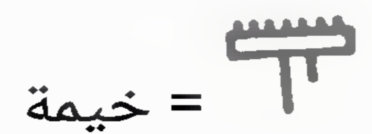
، و أصبح معناها خيمة، و إذا جاء معها مخصص الأقدام التي تسير

أصبحت

، و أصبح معناها يقترب.

غن

+ مخصص قماش

 = خيمة

غن

+ مخصص الأقدام التي تسير

= يقترب

بعض المخصصات تكون أصواتًا في بعض الأحيان، و مخصصات بلا صوت في أحيان أخرى، مثل علامة المنزل

تأتي أحيانًا كصوت ثنائي «پر»،مثل وجودها في پري

بمعنى يخرج أو يرحل،

و قد تأتي كمخصص بلا صوت، مثل معحعت

بمعنى مقبرة.

و عليه، فعلى الرغم مما تلعبه المخصّصات من دور في إيصال معنى الكلمة، إلا أنها تتسبب في خلط قوي بالنسبة لأمثالنا يا عزيزتي.

٦- الاختصارات Abbreviation.

و كأنما لم يكتفِ المصريون القدماء بكل هذه التفاصيل؛

فظهر جانب جديد من الصعوبات مع تطور اللغة، حيث حدثت الكثير من الاختصارات للكلمات؛ بغرض التسهيل في الكتابة، و لكنها تتسبب أيضًا في اللبس في المعني في العديد من الأوقات مثل:

مـچحو

بمعنى نجار أو صانع سفن جاءت بشكل مختصر

أو

على الجانب الآخر نجد كلمة مـچـح

في الدولة القديمة تعني: عصابة الرأس، و في العصور المتأخرة تم اختصارها لـ

أو

، و نجد الرسمين منطبقين، و هو ما يُحدث لبسًا بالطبع، و لا نرى إمكانية للتفريق إلا من خلال السياق.

٧- القيم الصوتية المختلفة لنفس العلامة:

بعض العلامات تحمل قيمتين صوتيتين، مثلًا.. قد نجدها

تحمل قيمة صوتية ثلاثية في بعض الكلمات، و تحمل قيمة رباعية في كلمات أخرى.

مثلًا: كـپ

، و تعني: مبخرة: نجدها تحمل قيمة صوتية ثنائية كما في كلمة كـپني

بمعنى ببلوس -المدينة السورية الساحلية- بينما تحمل قيمة صوتية ثلاثية كما في كلمة كاپ بمعنى يبخر

، أو في كاپ بمعنى حريم

٧- الحروف المتحركة و الصائتة:

و كأنما لم تكتف اللغة الهيروغليفية بكل هذه الصعوبات؛ فجاءت بلا حروف متحركة على الإطلاق.. فقط حروف صامتة.. لا تتعجبي هكذا يا عزيزتي؛ فليست هذه ظاهرة قاصرة على الهيروغليفية فقط.. هناك لغات أخرى -حية- لها نفس الطابع، العربية -على سبيل المثال- اعتمدت في الأساس على الصوامت، و الصوائت شديدة الطول -حروف المد- و لكن الصوائت القصيرة -التشكيل بالفتح، و الضم، و

الكسر- لم يكن في أصل الكتابة العربية.

نحن مدينون لأشخاص من أمثال «أبي الأسود الدؤلي» و «الخليل بن أحمد الفراهيدي»و «نصر بن عاصم» و «يحيى بن يعمر»، و رفاقهم في وضع التشكيل في العربية -الذي يقابل الحروف المتحركة في اللغات المشتقة عن اللاتينية- و لكننا لا زلنا لا نلتزم بها تقريبًا في مُكاتباتنا، و هو ما يجعل قراءة العربية تكاد تكون جحيمًا لأولئك الذين يأتون من أصول غير عربية، و لولا أنها لغة حية، لربما عانى من يحاول قراءتها الأمرَّين مثلما عاني كل من حاول قراءة الهيروغليفية.

فَتَحَ عدمُ وجود حروف متحركة في اللغة الهيروغليفية باب التخمين على مصراعيه في نطق أغلب الكلمات، و لولا البقية الباقية التي تتحدث بالقبطية في الكنائس المصرية، لكانت مشكلة النطق لتصبح أكثر تعقيدًا، فالقبطية هي الابن الشرعي للهيروغليفية، و لها فضل كبير في فهمنا لها يا عزيزتي.

حتى إن «شامبليون» كان دائم التردد على واحد من الكهنة الكنسيين مصري الأصل -و الذي كان موجودًا في باريس- ليتعلم منه القبطية، بينما يحاول فك رموز الهيروغليفية.. كان اسم ذلك الكاهن «يوحنا» على ما أذكر(59).

أرأيت يا عزيزتي؟

في الحقيقة.. إن فك رموز الهيروغليفية كان شديد الصعوبة، و استلزم تفانيًا حقيقيًا من «شامبليون»، و انغماسًا عميقًا في الحضارة المصرية، و في اللغة القبطية؛ سعيًا منه نحو فهم الهيروغليفية.

يقول المؤرخ الفرنسي «جان لاكتور»في دراسته «شامبليون، حياة من نور»على لسان «شامبليون» في رسالته لأخيه: «أما عن اللغة القبطية، فأنا لا أفعل أي شيء آخر، أصبحت لا أحلم إلا بالقبطية.» و لكن جهوده لم تذهب سُدىً.. لقد منحته الهيرغليفية أسرارها في النهاية.

و فُتح باب أمام فهم أفضل مبني على دلائل قوية للحضارة المصرية القديمة. و لكن.. ما مصادر معرفتنا عن الحضارة المصرية السابقة على البطلمية قبل أن تُحل رموز الهيروغليفية؟

مصادر الحضارة المصرية قبل شامبليون:

كان الاعتماد على كلام المؤرخين المشهورين -خاصة في العصر البطلمي- و دعينا نتحدث عنهم قليلًا بشكل شديد الاختصار:

-«هيكاته الملاطي»:

و هو مؤرخ من القرن السادس ق.م.، و فيما نعرف هو أول مؤرخ تحدث عن مصر، و كان ذلك بعدما زار كهنة «طيبة»، و تحدث معهم عام ٥٥٠ ق.م. تقريبًا، عندما كان يضع شجرة أنساب، و تاريخ لوبيا التي هي ليبيا حاليًا.

- «هيرودوت»:

و قد زار أبو التاريخ مصر في القرن الخامس ق.م. فيما يقرب من ٤٥٠ ق.م.، و تجول فيها شمالًا و جنوبًا، و جلس مع كهنتها، و استمع لقصص أهلها، و قد خصص الجزء الثاني من مؤلفه في التاريخ لمصر.

عندما التقى بالكهنة، أخبروه أن أول ملك لمصر الموحدة هو «مينا»، و عددوا له أسماء ٣٤٠ ملكًا، و أخبروه أن الفترة بين أول ملك و آخر ملك كان فيها ٣٤١ جيلًا من البشر، و أن كل ٣ أجيال تعادل ١٠٠ سنة؛ أي أن تاريخ مصر عندهم ١١٣٤٠ عام تقريبًا. و ربما كانت أهمية تأريخ «هيرودوت» ترجع لما رآه بنفسه من حياة المصريين؛ لو نظرنا للأشياء الأخرى التي تحدث عنها لوجدناها تمتلئ بالأساطير غير الموثقة التي تجعلنا نتعامل معها بقدر كبير من الحذر.

- «هيكاته الأبدري»:

و هو من رجال بلاط «بطليموس الأول»، و لم يصلنا مؤلفه في التاريخ ، و لكن المؤرخين التالين له أمثال «ديودور الصقلي» تحدثوا عنه.

- «مانيتون السمنودي»:



أحد أهم -إن لم يكن هو أهم- مؤرخي مصر القدامى على مطلق المؤرخين.

يحيط به الغموض قليلًا؛ بسبب ما كتبه عن نفسه في كتاب الجباتا عن كونه صعد للسماء، و قابل الإله «حورس»، و أنه كلفه بمهامه في دنيا، إضافة لاختفائه الغامض، فلم نعثر على مقبرته حتى الآن، على الرغم من منجزاته المتنوعة، و المبهرة.

عاش في عهد «بطليموس الأول» و «بطليموس الثاني». يعد كتابه «المصريات» أو كما أسماه «Aegyptiaca»، الذي كتبه بتكليف من «بطليموس الثاني» فلادلفيوس -من المؤرخين من يقول إن التكليف كان من «بطليموس الأول» سوتير، و ليس «بطليموس الثاني» فلادلفيوس- و الذي كتبه حوالي ٢٧٠ ق.م.، هو أهم مصدر عن مصر الفرعونية قبل فك رموز الهيروغليفية.

و قد ذكر فيه ٣٠ أسرة فرعونية حكمت مصر -هناك من يقول ٣١ أسرة- بالترتيب الزمني مع الأسماء و الأحداث و التفاصيل الدينية و الاجتماعية.

و لـ«مانيتون» العديد من الكتب الأخرى مثل: «الجباتا» الذي يعتبره البعض سفر التكوين المصري؛ لما فيه من نصوص من أسفار عديدة تناقلها المصريون عبر تاريخهم، إضافة لرسائله لـ«رع»، و لكتاباته عن «تفنوت»، و «شو».

يرجع الفضل لـ«مانيتون» في تقسيم حكام مصر للأسرات

الثلاثين المعروفة، و اعتمد في كتابه على قوائم الملوك و الملكات، على ما يبدو.

و لكن هذا الكتاب لم يصل لنا للأسف، فقد كان محفوظًا في مكتبة الإسكندرية، و عندما جاء «يوليوس قيصر» لمصر مطاردًا «بومباي»عام ٤٨ ق.م.، و تمت محاصرة جيشه من «بطليموس الثالث» عشر، أخي «كليوباترا السابعة»، و الملقب «ببطليموس الصغير»، عندما شعر أن «يوليوس قيصر» يتحيز لأخته على حسابه، فأمر «يوليوس قيصر»بإحراق أسطول السفن؛ سعيًا منه لإيجاد مخرج للجيش، و لكن النيران لم تقف عند السفن، و -فيما التهمت- مكتبة الإسكندرية بما احتوته من مخطوطات ثمينة، و كان كتاب الآييجيبتياكا منهم.

كيف نعرف عما كتبه فيه إذن؟

نعرف من خلال كتابات المؤرخين عنه، و نجد لديهم استشهادات بمقاطع كثيرة منه، إضافة لكلامهم عنه و ما احتواه، و من أمثلة ذلك:

«جوزيف اليهودي»، و ما استشهد به من الكتاب في مناظرته الشهيرة مع النحوي السكندري «إبيون» الذي كان يحتقر اليهود، و يقول عنهم إن الفراعنة اعتبروهم شعبًا نجسًا، فرد عليه «جوزيف اليهودي»إن ذلك غير صحيح،

و إن اليهود كانوا ملوك مصر، وأنهم هم الهكسوس، الذين تحدث عنهم «مانيتون» في كتابه، و أورد «جوزيف»فقرات كبيرة من آيجيبتياكا، و الأرجح أنه رجع لملخص الآيجيبتياكا الذي لم يكن يحتوي غير أقل المعلومات، و لكنه يحتوى على قائمة الملوك.

مؤرخو العصر المسيحي، و رجع العديدون منهم لهذا المختصر في معرض كتاباتهم التأريخية مثل: «سيكستس جوليوس أفريكانوس» ٢٢٠ م. تقريبًا، و «يوسابيوس القيصري» (٢٧٠-٣٤٠) م الذي نقل عن المختصر من نسخة أخرى، ثم ألف «جورج» المسمى «سينسل» كاتم أسرار بطريرك الإسكندرية تاريخًا نقله عن مختصر «يوسابيوس» و «سكستس» و ذكر فيه أن «مانيتون» قسم الحكام لـ٣١ أسرة تنتسب كل منها لجهة معينة من البلاد؛ طينية، منفية، ألفنتية، إهناسية، طيبية.. إلخ.

ظل تاريخ «مانيتون» هو حجر الأساس الذي نعتمد عليه حتى الآن، و هو أهم مؤرخي ما قبل فهم الهيروغليفية.

- «ديودور الصقلي»

لم يضِع الكتاب الذي ألفه «ديودور الصقلي» عن مصر بعد زيارته لها عام ٦٠ ق.م. كان يكتب عن أصل العالم، و قاده بحثه لمصر التي يعتبرها أهلها مهد الإنسان. و يبدو متأثرًا

بـ«هيرودوت» و «هيكاته الأبدري»، و يميل للأفكار الفلسفية و الدينية.

- «أرستوستين السيريني»

جغرافي سكندري كان يعيش في الإسكندرية (٢٧٥-١٩٤) ق.م.، و وصل له مخطوطة لكهنة طيبة ذكروا فيها ٣٨ ملكًا، ترجمها للإغريقية و حفظها «جورج سنسل»، فيها ميزة أنها تخبرنا دلالات معاني الأسماء الموجودة بها.

- «سترابون»:

جغرافي آخر زار مصر عام ٢٧ م. و وصل للشلال الأول و وصف هذه الزيارة في الفصل السابع عشر من جغرافيته، و عُرِف عنه أنه كان ينقل عن غيره، و ينسب لنفسه، و كان جل اهتمامه بالعصر البطلمي.

- «بلوتارك»:

يعد كتابه عن أسطورة «إيزيس» و «أزوريس» الذي كتبه عام ١٢٠ ممرجعية هامة لهذه الأسطورة الدينية؛ فالكتاب متكامل لحد بعيد ، وإن منح الأسطورة طابعًا إغريقيًا، و لكنه لعب دورًا هامًا كمصدر لهذه الأسطورة و ترتيب أحداثها.

لاحظي معي يا عزيزتي أن أكثرهم إيغالًا في التاريخ:

«هيكاته الملاطي» كان يعيش في القرن السادس ق.م. و يرجع أكثرهم تقديرًا و احترامًا: «مانيتون السمنودي» للقرن الثالث ق.م.

بينما ترجع الأسرات بداية من حكم «مينا» -و دعينا لا نتحدث عمن سبقوا توحيد «كيميت»- لما يقرب من اثنين وثلاثين قرنا ق.م. هل تتخيلين معي الرقم؟ يفصل «مانيتون السمنودي» عن بداية عهد الأسرات -التي يتحدث عنها- ما يقترب من ٣٠٠٠ عام! ناهيك أنه ذكر أن حكم مصر بدأ بحكم الآلهة ثم شمسوحور ثم المبجلين ثم الأسرات.. و أن تاريخ مصر يرجع لأكثر من ٣٣ ألف عام ق. م. هل تتخيلين كل هذا الزمن؟!

و إذا غضضنا الطرف عمَّا سبق الأسرات، و التزمنا بالأسرات فقط لوجدنا أنه كان يتحدث عن زمن سحيق بالنسبة له خاصة مع ضعف التوثيق.. بلا إنترنت و لا تلفاز و لا جرائد و لا كتب.

٣٠٠٠ عام!!

لو تحدثنا الآن عما حدث منذ ٣٠٠٠ عام، لوجدنا أننا نتحدث عما يقرب من عام ١٠٠٠ ق.م!

أي أننا سنكون نتحدث عن الأسرة ٢١ من حكم الفراعنة،

في بداية عصر الاضمحلال الأخير بعد الدولة الحديثة.

و على الرغم من كل وسائل التوثيق المعاصرة، و كل المعلومات و التقنيات التي نملكها، فإننا لا نستطيع أن نكون قاطعين بكل ما حدث في ذلك العهد.

هل تتخيلين معي صعوبة التأريخ لهذه الأزمان السحيقة في هذا العصر؟

و على الرغم من ثقتنا في سعة اطلاع «مانيتون»، و قدرته على قراءة الهيروغليفية التي منحته أفضلية الاطلاع على القوائم الملكية التي كانت مكتوبة وقتها، إلا أن الشك حول معلوماته عن بدايات الأسرات -و ما قبلها- لا بد أن يخامرنا بعض الشيء.

عن نفسي، يا عزيزتي، أتمنى أن نجد قبر هذا الرجل، أعتقد أن أسرارًا عديدة ستنجلي عندها.. أو ربما تواجهنا أسرار أكثر تعقيدًا.. لا أدري.. لا شيء يسير حسب توقعاتنا هنا.

في النهاية، تبقى هذه هي مصادرنا المعتمدة عن هذه العصور حتى تمَّ فك رموز الهيروغليفية.. بعدها نستطيع أن نعرف ما كتبه المصريون عن أنفسهم.

و الآن.. دعينا نتساءل:

ما هي مصادرنا عن التاريخ المصري القديم، و ملوك المصريين القدامي بعد فك رموز حجر رشيد؟ هناك العديد من المصادر.. دعينا نتحدث عنها قليلًا، قبل أن نتطرق لقصص و حواديت هؤلاء الملوك العظام.

مصادر التاريخ الفرعوني المكتوبة بالهيروغليفية:

تعرفين طبعًا أننا لم نجد كتابًا فرعونيًا يؤرخ لتاريخهم، و لكننا نعتمد على مصادر أخرى مما وثقوه؛ لنكتب نحن تاريخهم، مثل:

- النقوش؛

و تتعلق في المعتاد بأخبار الحروب،

مُنجزات علية القوم،

المراسيم الملكية.

- أوراق البردي:

و تحتوي على موضوعات إدارية أو قضائية أو أدبية.

و من أقدم الوثائق:

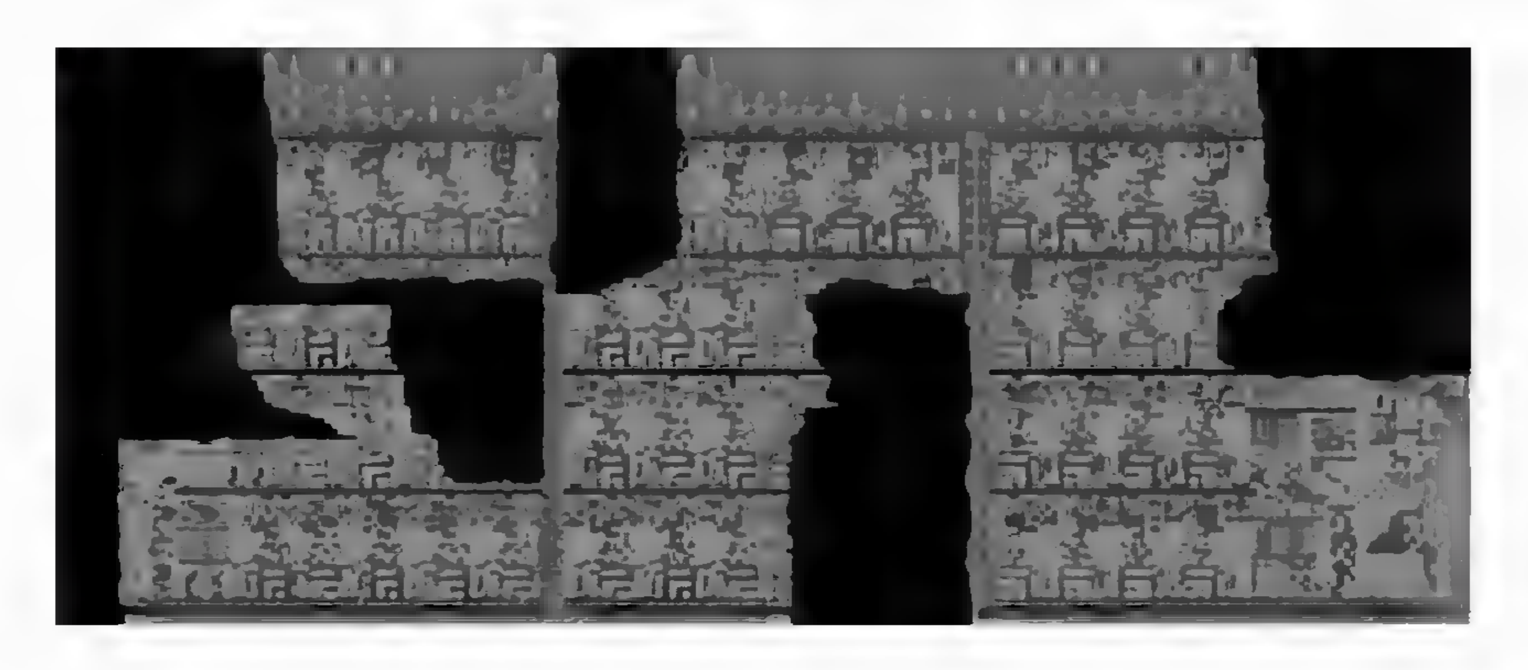
- حجر باليرمو؛



جزء من لوحة تذكارية كبيرة تعرف باسم «الحوليات الملكية للدولة القديمة»، وتحوي قائمة بأسماء ملوك مصر من عصر الأسرة الأولى حتى بداية الأسرة الخامسة، كما تذكر عدة ملوك لمصر العليا يسبقون مينا نعرمر، و يرجح أنها كُتبت في الأسرة الخامسة. الجزء الرئيس من الحجر محفوظ في متحف باليرمو في إيطاليا، بينما نجد خمسة أجزاء منه في المتحف المصري بالقاهرة، كما يوجد جزء صغير في متحف بتري للآثار المصرية في كلية لندن

الجامعية.

- قائمة الكرنك: و ترجع لحكم تحتمس الثالث في الأسرة الثامنة عشرة، و عثر عليه في قاعة الأعياد التي بناها تحتمس الثالث في معبد الكرنك، و هي محفوظة الآن في متحف اللوفر.

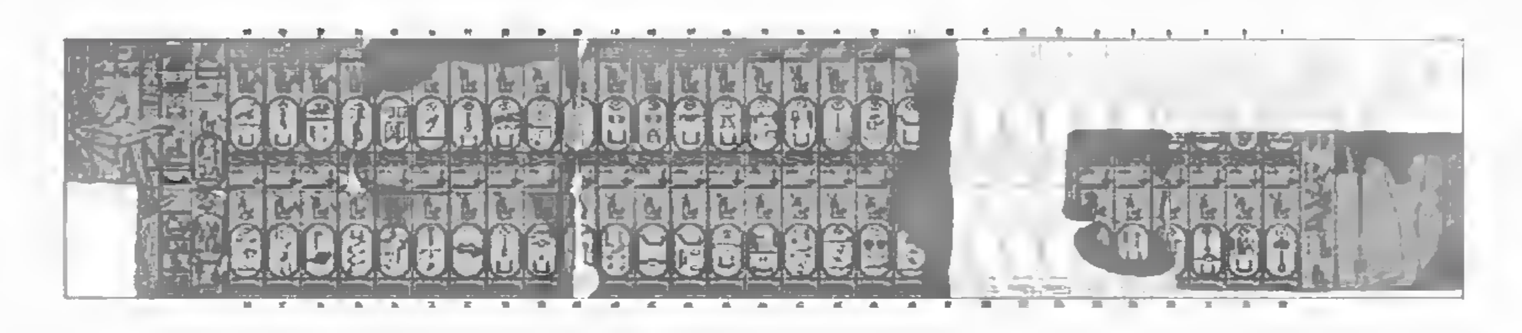


- قائمة العرابة المدفونة في أبيدوس

و ترجع لسيتي الأول، و أراد به تخليد ذكرى أجداده الذين يفتخر بهم، فكتبهم على جدران حجرة خاصة، و بها خلط في قوائم الملوك قبل الأسرة الرابعة، و إن اتفقت مع باقي القوائم في الملوك التالين لها.

- قائمة سقارة

و ترجع لعصر رمسيس الثاني، وهي محفوظة الآن في متحف القاهرة، و كانت في قبر الكاتب الملكي تونوري، و تبدأ بخامس خلفاء «مينا»: «مربابا»، و هناك لغط في ترتيب ملوكها.



- بردية تورين

و هي القائمة الملكية الأقرب لتاريخ مانيتون كما سرده،

مما يرجح اعتماده عليها، و على قوائم ملكية مماثلة ربما لم نتوصل لها حتى الآن.

و هي وثيقة هامة لا تحتوي فقط على أسماء الملوك، بل فترة حكمهم أيضًا، و برغم فقدان الكثير من أجزائها إلا أننا نجد العديد من أسماء الملوك الذين لم يظهروا في غيرها، خاصة ملوك الفترة الانتقالية الثانية بين الأسرة الثانية عشرة و الثامنة عشرة.



- نصوص الأنساب

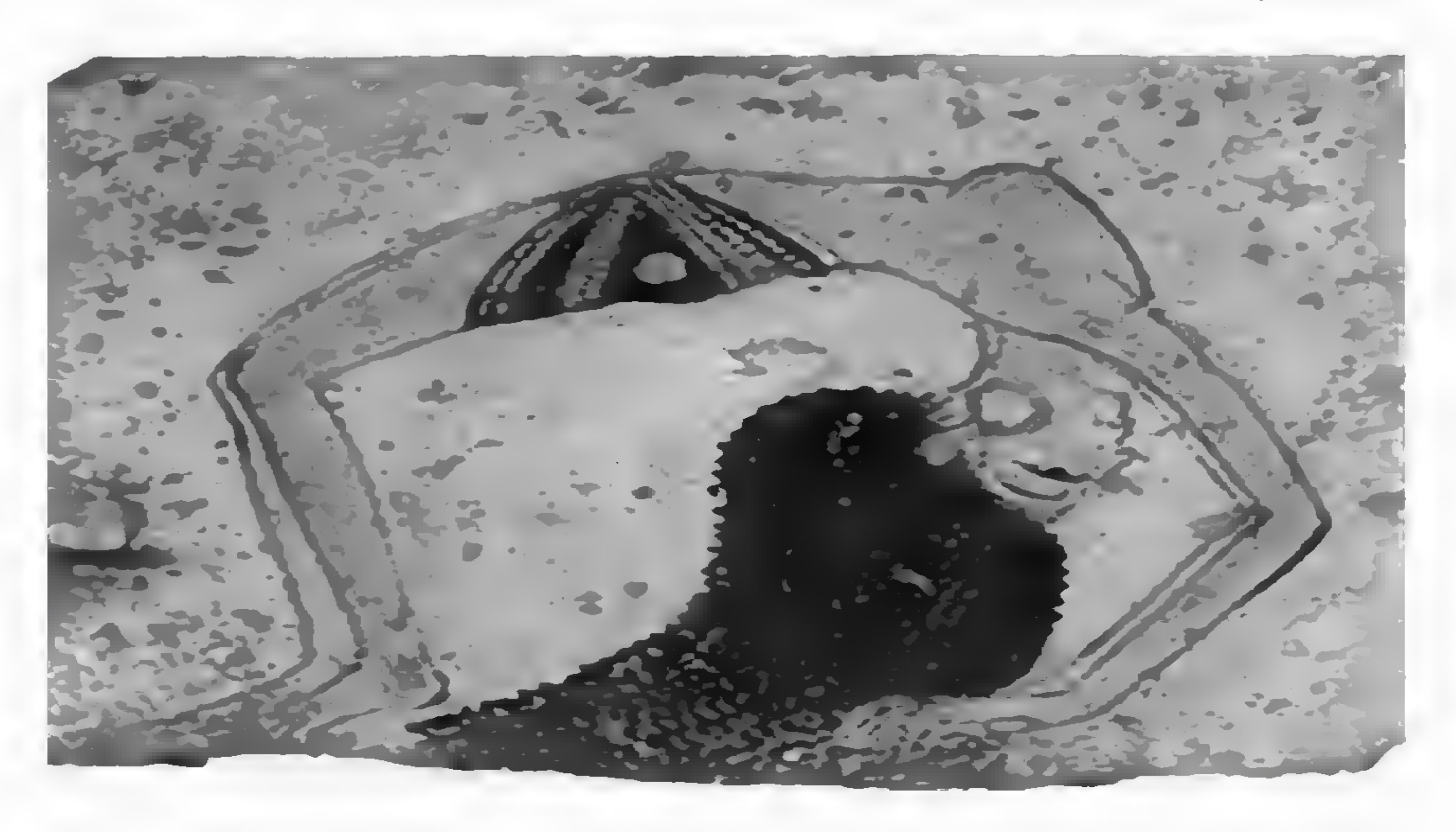
و تنتمي للعصور المتأخرة، و تحكي عن نسب عائلات بعينها، و تساعد بذلك في معرفة تتابع الملوك الذين عاش في عهودهم أصحاب النصوص، و عوائلهم، و من أشهر هذه النصوص نص الكاهن «عنخ سف إن سخمت» كاهن بتاح في الأسرة الثانية و العشرين.

- المقابر.

كان حرص المصريين القدماء على حياة ما بعد البعث مفيدًا لنا في معرفة تفاصيل حياتهم اليومية؛ حيث حرصوا

على تسجيل كل ما يحبون في حياتهم؛ حتى يتمكنوا من فعله بعد البعث اعتمادًا على النقوش السحرية التي تصاحبها- كما كانوا يعتقدون- فوجدنا لهم نقوشًا في جميع أحوال حياتهم:

و هم يغنون، و يرقصون:



و يمارسون الرياضة:

يصطادون:



يلاعبون أطفالهم، و يمشطون شعورهم:



يندبون موتاهم:

يحاربون، و ينتصرون:



عرفنا من مقابرهم ما الذي كانوا يأكلونه:



شاهدناهم و هو يزرعون في الأرض:



في الواقع يا عزيزتي.. يبدو أن المصريين أحبوا الزراعة بالفعل، فقد حرصوا على توثيق عملهم بالزراعة على جدران مقابرهم، ودعينا لا ننسى أن جنتهم -«إيارو»- هي مزرعة خضراء عظيمة في الأساس. و هكذا.. أخبرتنا مقابرهم عن حياتهم اليومية و عن أمجادهم و تاريخهم أيضًا، و بطبيعة الحال عن دياناتهم و فلسفتهم:



فالغرض من كل هذه النقوش -في النهاية- هو أن ينضم الميت للآلهة بعد بعثه.

و لم تقتصر النقوش في المقابر على الجدران، بل على التوابيت والبرديات الموجودة في المقابر أيضًا.

انظري لهذه البردية الكاريكاتيرية:



يبدو أن العلاقة بين القط و الفأر تشغل عقل الإنسان منذ بداية الحضارات، و ليس «توم» و «چيري» فقط.

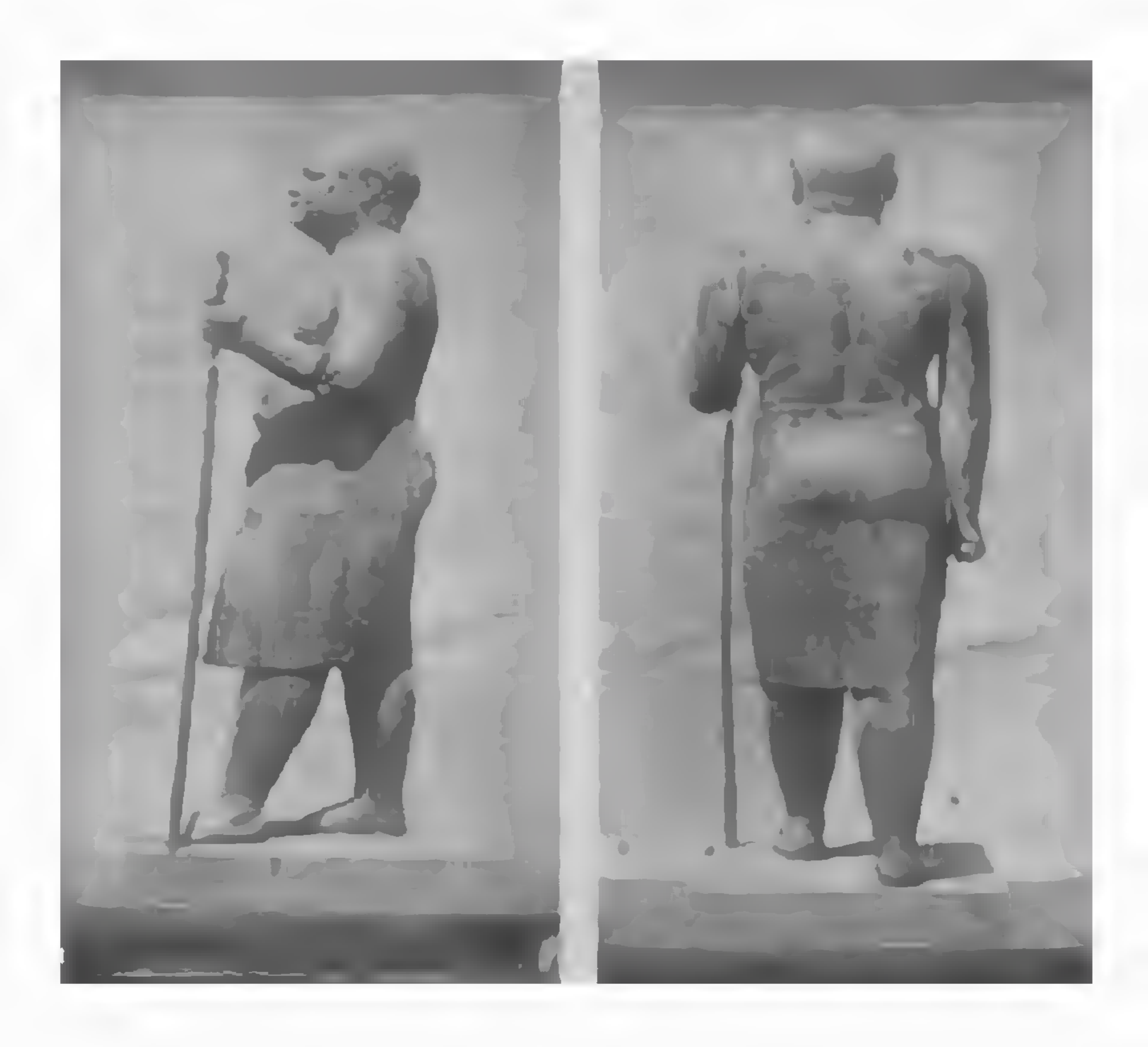
إضافة للتماثيل، التي كان الغرض منها عندهم إرشاد الـ«كا» -القرين أو النفس أو الجزء المادي من الروح- لتجد جسد المتوفَّى. سنتحدث لاحقًا بالتفصيل عن الذي كان يعتقده المصري القديم في الروح، توقفي عن هذا القلق المتكرر يا صغيرتي.. تصبحين لحوحًا كالأطفال أحيانًا كثيرة.. لا.. هذا مما أعشقه فيك.. في الحقيقة.. لا يوجد ما لا أعشقه فيك، حتى عنادك.. و الآن دعينا نهدأ و نكمل حديثنا.. ماذا كنا نقول؟

آه.. المقابر.

دلَّتنا التماثيل في المقابر في أحيان كثيرة على مواصفات المصريين القدماء الجسدية:



229



ترين معي مواصفات شيخ البلد «كا عبر» الذي عاش في عصر الدولة القديمة، لقد كان ممتلئ الجسد -على خلاف ما هو معتاد عند المصريين القدماء- كما هو واضح. و وظائفهم:





يبدو واضحًا أن هذا الرجل يعمل كاتبًا، و أن هؤلاء النسوة يقمن بالعجين، كما ترين. و طبائع علاقاتهم ببعضهم البعض.



إن صورة القزم «سنب» مع زوجته و أولاده -التي تعود للدولة القديمة- لا تعطينا فقط فكرة عن علاقة الأسرة ببعضها البعض، بل تمنحنا فكرة عن مواصفاته الجسدية، وعلى النظرة المجتمعية التي كان ينظر بها المصري القديم للأقزام، و على براعة الفنان المصري القديم أيضًا في التعبير عن المشاعر الدافئة بين «سنب» و زوجته.

- المعابد.

أعتقد أن هذا واضح إلى حد ما، فـ«قائمة الكرنك للملوك» كانت في معبد «الكرنك»، و «قائمة العرابة المقدسة للملوك» موجودة على جدار في معبد «سيتي الأول» في «أبيدوس»، هذا أوضح من أن نوضحه. لقد سجل الملوك انتصاراتهم على جدران المعابد، و بطبيعة الحال، نعرف الكثير عن عقيدتهم و فلسفتهم الدينية من جدرانها.

- مصادر من خارج البلاد.

آثار وُجِدت في ممالك أخرى احتكت بمصر، فتحدثت عنها أو أخذت بعضًا من آثارها، و منها على سبيل المثال لا الحصر:

آثار الدولة القديمة الموجودة في فلسطين و سوريا. آثار الأسرة الثانية عشرةالموجودة في جزيرة كريت. آثار الأسرة الثامنة عشرة الموجودة في بلاد ما بين النهرين.

و نعود لشامبليون،

و هكذا ترين يا عزيزتي: إن فهمنا لكل هذه التفاصيل عن حياة أجدادنا، إنما يعود لنقطة هامة و محورية: «شامبليون»، و هو يفك رموز الهروغليفية. انتبه العالم -بعد فك رموز الهيروغليفية- لهذه الحضارة و قيمتها و عظمتها قبل أن ينتبه المصريون أنفسهم لذلك.. و فجأة.. اكتشف

«محمد علي» -الذي كان يحكم مصر عندما تم فك الرموز- أن أوروبا تهتم بشدة بهذه الأحجار و المباني القديمة التي لا يرى لها قيمة عظيمة. و على الرغم مما قام به الوالي «محمد علي» باشا من جهود عظيمة للنهوض بمصر الحديثة في كافة المجالات، إلا أنه لم يكن يرى لهذه الآثار قيمة حقيقية، حتى إنه من الشائع أنه حاول هدم الهرم الأكبر؛ ليستخدم حجارته في بناء القناطر الخيرية، ثم تراجع عن ذلك.(60)

بلغ عدم اهتمامه بالآثار أن قلق عليها «شامبليون»! و رفع له مذكرة بعنوان:

«مذكرة شملت إلى الوالي بشأن حفظ و صيانة الآثار المصرية القديمة».

ربما كانت هذه المذكرة هي سبب إصدار «محمد علي» لمرسوم يحظر تصدير الآثار للخارج، و يأمر بإنشاء مبنى بحديقة الأزبكية كدار لحفظ الآثار، و لكن ما فعله «محمد علي» باشا على مستوى التطبيق العملي يدل على أن هذا المرسوم كان شكليًا لحد بعيد، خاصة عندما اكتشف أنه يستطيع استرضاء هذه الدول الأجنبية بمنحها بعض الآثار.

فمنح إنجلترا -تكريمًا لذكرى انتصار «نلسون» على «نابليون» عام ١٨٠١- مسلة من مسلتي «كليوباترا»، اللتين

كانتا موجودتين في الإسكندرية، و الحقيقة أنهما لم تكونا لـ«كليوباترا»، بل للعظيم «تحتمس الثالث»،أقامهما عند معبد «رع» في هليوبوليس، و نقلهما الرومان للإسكندرية، و لا نعرف لماذا أطلقوا عليهما مسلتي «كليوباترا».



و على الرغم من رغبة الإنجليز الحقيقية في الحصول على المسلك، لكنهم لم يبدؤوا في إجراءات نقلها قبل عام ١٨٨٧ تخوفًا من صعوبة النقل، لتصل لندن، و تستقر بجوار نهر التايمز.

ثم عاد و منح «فرنسا» مسلتي «رمسيس الثاني» المصنوعتين من الجرانيت الأحمر اللتين استقرتا أمام معبد الأقصر منذ الدولة الحديثة في عصر الأسرات كما ترين في الرسمة على اليمين، و منح «فرنسا» معهما المسلة المتبقية

في الإسكندرية.



فاعتذرت «فرنسا» بعدم قدرتها على قبول هذا الكرم العظيم، و اكتفت بمسلة واحدة من مسلتي معبد الأقصر، و عانت الأمرَّين في نقلها لفرنسا وسط اعتراضات مصرية تزعَّمها «رفاعة رافع الطهطاوي»، و اعتراضات فرنسية تزعمها الشاعر «بيتروس بوريل»، و لكن المسلة نقلت لفرنسا على الرغم من الاعتراضات، و استقرت في ميدان الكونكورد، ضد رغبة «شامبليون»، الذي أرادها عند اللوفر.

مات «شامبليون» قبل أن يراها في مكانها النهائي.. كنبتة غريبة في ميدان الكونكورد.. تشهد على ما تمر به فرنسا من

أحداث منذ منتصف القرن التسع عشر و حتى الآن.. و تترك أختها أمام معبد الأقصر مبتورة الرفيق. وفيما يلي ستجد:

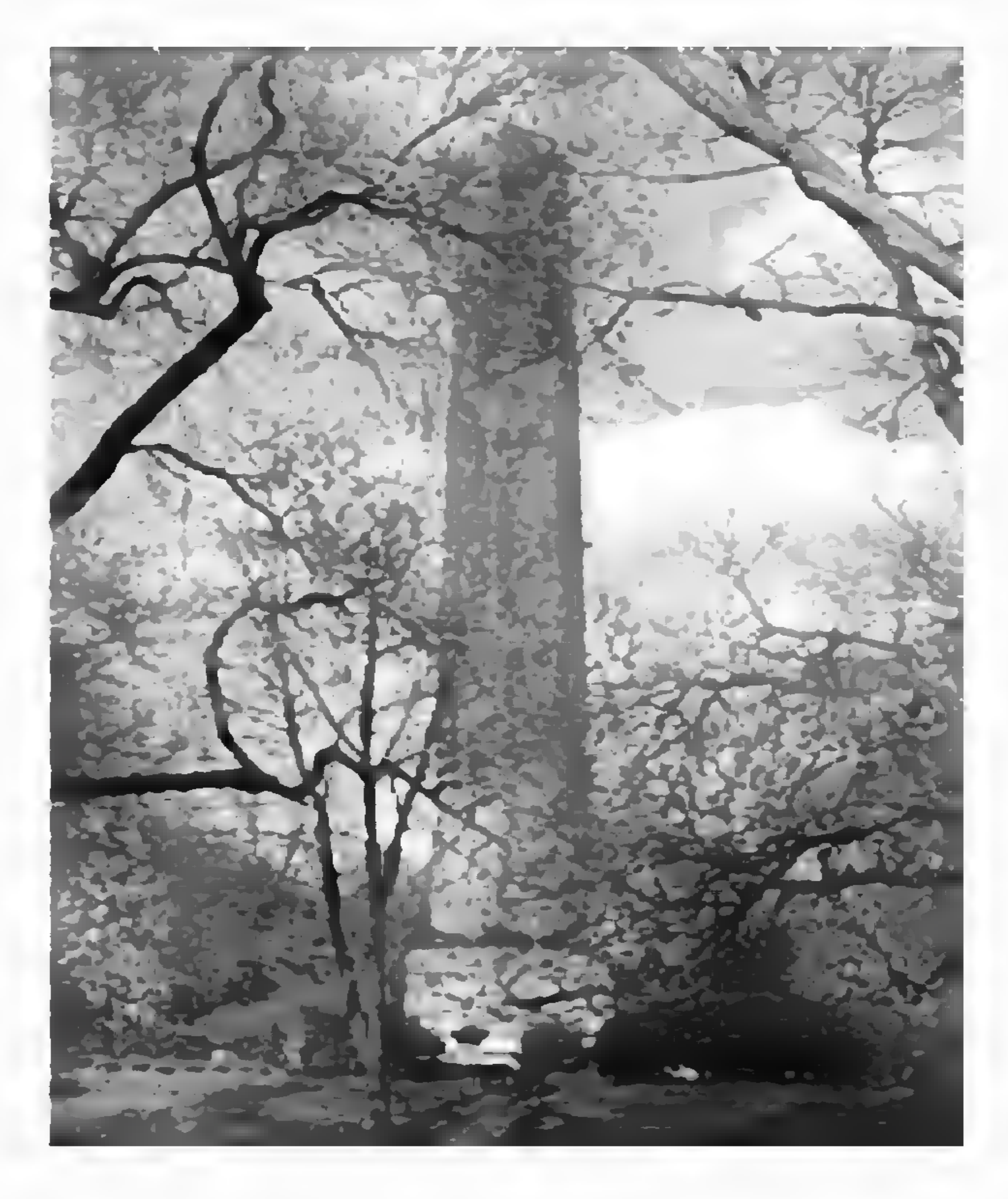
مسلة «رمسيس الثاني» في ميدان الكونكورد تغطيها الثلوج. ومعبد الأقصر الآن





لم يختلف أبناء محمد علي عنه كثيرًا، فالمسلة الثانية

من مسلتي «كليوباترا»- مثلًا- تقبع الآن في حديقة سنترال بارك في مانهاتن في الولايات المتحدة الأمريكية بقرار من الخديوي توفيق عام ١٨٧٩ م.، بعد أن أبدى أبوه الخديوي إسماعيل الرغبة في ذلك عام ١٩٦٩ م. أثناء افتتاح قناة السويس.



على الرغم من ذلك كانت هناك خطوات للحفاظ على الآثار، فبدأ الاهتمام بالآثار يظهر على استحياء في عهد الوالي

«محمد سعيد» باشا عندما منع نقل الآثار المصرية، و أصدر قرارًا بإنشاء مصلحة الآثار برئاسة «أوجست باشا مارييت»، و أمر بجمع الآثار في مخازن أُعِدت لها في بولاق. و في عهد الخديوي «إسماعيل» تم إنشاء أول متحف وطني للآثار في الشرق الأوسط بإيعاز من «أوجست باشا مارييت» عام ١٨٦٣ م.

و تبدو مجهودات «عباس حلمي الثاني» عظيمة في هذا المجال، بما أنشأه من متاحف جعلته يستحق لقب: «أبو المتحفيين».

لنتحدث ٣

لم تكن المرة الأولى..

كنت اعتدت زياراتك لي في الأحلام..

و لكنها كانت المرة الأولى التي تحدث بينما لست نائمًا..

كنت مرهقًا جدًّا..

و لم أكن أفهم لِمَ كل هذا الإرهاق؟!..

و لكني كنت مُستنفَدَ الطاقة لحد بعيد..

أتنفس بصعوبة..

أصعد السلالم بصعوبة..

أمشي بصعوبة..

أنام بصعوبة..

كل شيء كان صعبًا..

و الهواء ثقيل جدًّا طوال الوقت..

لِمَ كل هذا الإرهاق؟

تعرفين أنني أبذل الكثير من المجهود البدني، أعتاده و أحبه، فلم أكن أعرف ما الذي حدث لي..

كنت قد أطفات الأنوار، و جلست

أحاول أن أكون مسترخيًا قدر الإمكان..

أشاهد التلفاز بلا اهتمام حقيقي..

كنا قريبين من الفجر..

عندما سمعت صوتك في أذني..

هامسًا، و لكنه شديد الوضوح..

حتى إنني كدت أشعر بحرارة أنفاسك على أذني..

اسمي.. فقط اسمي.. هامسًا، و لكنه قوي التأثير..

انتبهت فزِعًا، و نظرت حولي..

اخترقت هذه الهمسةُ صدري.. سكنته، و جعلت قلبي منقبضًا..

لماذا يحيط بها الظلام بهذا الشكل؟

ظلام كثير دخل معها..

جلست مرتبكًا.. حائرًا..

لم نكن معًا عندها..

كالعادة.. قفزت بيننا الخلافات..

أشياء تفعلينها، و ترينها شديدة الطبيعية..

بينما لا أستطيع تحملها على الإطلاق..

هي لعنة الآلاف من الكيلومترات التي فصلت بيننا منذ البداية.. فجعلتنا نولد وسط كل هذا الاختلاف..

و لكن.. هذه الهمسة سيطرت علي تمامًا..

لم أستطع النوم..

بحثت عنك على السوشيال ميديا..

لم تدخلي منذ فترة على ما يبدو..

أصبح الارتباك قلقًا..

اتصلت بصديقنا الوحيد المشترك..

-سامحني.. أعرف أن الوقت غريب.. و لكني لا أستطيع التحكم في هذا القلق.. هناك شيء أسود يحيط بها..

هدًّأ من روعي..

-لم أتواصل معها منذ كنا معًا نحن الثلاثة.. و لكني أرسلت لها رسالة.. اصبر و سنرى..

اصبر.. اصبر.. اصبر.. أكاد أجَنُّ.. اصبر.. اصبر.. اصبر.. اتصل

بي في المساء..

-لا شيء.. لا تقلق.. فقط تمر بضائقة مادية ما.

-لماذا؟ أتركث عملها؟

-لا.. و لكنها اضطرت للتوقف عنه بعض الوقت.

-و السبب؟

-لم أسألها.. و لكنها بخير.

شكرتُه.. أنهيث المكالمة..

- حسنًا.. هي بخير..

تمتمث بذلك شارد الذهن..

مرت عدة أسابيع، ثم تقابلت معه بالصدفة، بينما كنت أزور العرابة المدفونة..

رآني، و أنا أدفن شعرةً من خصلتك التي أعطيتنيها هناك..

تعجَّب..

أخبرته أنني أفعل ذلك في كل مزار أزوره..

أترك جزءا منك في الأماكن التي أحبها..

أحب أن أربطك بتاريخي.. و بحاضري..

-هل عدتما لبعضكما البعض؟

-نحن لم نفترق بشكل حقيقي.. و لكننا لا نتواصل بالشكل المعتاد.. نتواصل دون أن نتواصل.. إن كنت تفهمني.

-أفهمك بالطبع.. لا زلت أذكر كيف شعرتَ بها عندما كانت مريضة.

تجمدت للحظة..

ثم استدرت له ببطء، و نظرت له صامتًا بعينين باردتين..

ارتبك..
أخذ يتحدث متلعثمًا..

عرفت أنكِ كنت مريضة بمرض غريب للمناعة الذاتية، و أنك جعلتِه يُقسم ألا يخبرني..

لا تغضبي منه؛ لقد زَلَّ لسانُه رغمًا عنه..

كما أنني غضبت منه بما يكفي لكلينا..

و لكني كدت أجن..

حاولت أن أستدين كي أسافر إليك..

لم أكن أعرف أين أنت الآن بالضبط..

كنت سأذهب لبلدتك، و أسأل عن بيت عائلتك، و أسألهم

عنك..

كنت سأتحمل غضب أمك، و احتقارها لي كعربي و مسلم، و وغد بدائي يريد اختطاف ابنتها، و أكلها على مهل بينما هي بعيدة عنها..

لا ألومها؛ هذا هو ما تربت على الاعتقاد فيه..

كنت سأتحمل اعتقال الشرطة لي عندما تدَّعي أنني حاولت قتلها.. أو حاولت سرقة المنزل.. أو حاولت تفجير المكان..

كنت سأفعل أي شيء لأصل إليك..

كيف تهمسين في أذني و لا أهرع لك كالمجنون؛

لأحتضنك؟..

أمسح على شعرك.. أهدهدك.. أهمس بالقرآن -الذي لا تفهمينه- في أذنك.. أجعلك تتأكدين أنني هنا لأجلك..

دائمًا.. للأبد؟!

كيف أحس بوجعك و أقف هكذا عاجزًا، بليدًا؟..

لم أستطع أن أجد مَنْ أستدين منه..

اتصالات تليفونية كثيرة..

زيارات كثيرة..

توسل..

الكثير من التوسل..

و لكن لم يقبل أحدٌ أن يعطيني أيًّا من المال..

وقفت في الظلام حائرًا.. ثم انفجرت في البكاء..

أصبحث هي عادتي التي لا يعرفها أحد؛ أجلس وحيدًا في الظلام و أبكي..

أبكي عجزي..

قلة حيلتي..

فشلي الأصيل المتكرر الذي-يبدو- أنه خُلِق معي..

ماذا؟

ما هي العرابة المدفونة؟

تغيرين الموضوع إذن.. حسنًا.. لنغير الموضوع.

ألم أقص عليكِ شيئًا عن العرابة المدفونة بعد؟

أقدمُ حكّام مصر الموحدة جاؤوا من هنا يا عزيزتي..

أو فلنقل دُفنوا هنا؛ لنكونَ أكثر دقة.. تعرفين بالطبع ما اشتهر عن توحيد مصر، و أنه كان على يد «مينا»..

أول ملك مصري لـمصر الموحدة.. أليس كذلك؟

و لكن من هو «مينا»؟

و كيف وحد مصر؟

في الواقع.. هناك خلافية عظيمة على حقيقة «مينا»، فبينما يعرف الجميع أنه أول حاكم لمصر الموحدة، فإننا لا نملك دليلًا قطعيًا على ذلك، و حين نبحث عن أقدم نقش لشخص يرتدي التاجين؛ تاج الجنوب الأبيض، و تاج الشمال الأحمر، نجد أنه الصلاية الشهيرة، و الموجودة حاليًا في المتحف المصري بالتحرير في القاهرة:



و هي تخبرنا أن صاحب النقوش التي عليها يدعى

«نعرمر».. و لكن من هو «نعرمر»؟

هل هو «مينا»؟

نجد أيضًا نقوشًا لملك محارب شهير يأتي تاليًا لـ«نعرمر» - فيما نعرف- و يدعى «حور عحا»، و نجد أنه يملك لقبًا آخر: «مني»، فهل يمكن أن يكون هو «مينا»؟

لاحظي معي وجود أجزاء من صلاية سابقة على صلاية «نعرمر»، ربما كانت لملك يُدعى «العقرب الثاني».. يستدعي ذلك وجود عقرب أول بالطبع.. تجدين أجزاء هذ الصلاية في المتحف المصري هي الأخرى.





كما يظهر «العقرب الثاني» في نقش على دبوسه القتالي - أو مقمعته- مرتديًا تاج الجنوب فقط، دون أن نجد له نقشًا و هو يرتدي تاج الشمال.

نعرف أن «العقرب الثاني» وحّد الجنوب و ارتدى تاجه، فهل هو من أكمل و وحد مصر كلها؟

هل «مينا» هو «العقرب الثاني»؟

هل «العقرب الثاني» و «نعرمر» و «حور عحا» هي ثلاثة أسماء لملك واحد هو «مينا» الذي وحّد القطرين؟

كيف وحّد العقرب الثاني الجنوب؟

ما هي أول عاصمة لمصر الموحدة؟

من هو أول ملك لبس تاج مصر الموحد؟

من هي أول امرأة تجلس على عرش مملكة في التاريخ؟

من هو أول من استخدم الحجارة غير الطينية في البناء؟

ما هي أساطير المصريين القدماء الدينية؟

العديد و العديد مِن «مَن» و «ما» و «كيف»

تواجهنا في الواقع، و سنجيب عليها كلها قدر ما نستطيع..
و لكن في كتابنا القادم معًا، إن شاء الله.. فإلى لقاء قريب.

---

(1) و تنطق أيضًا أيون، و باللغة المصرية القديمة آن، و تعني: الأعمدة، و بالقبطية أن، و باليونانية هليوبوليس «مديمة الشمس».

(2) عالم فلك و رياضيات و فيلسوف مالطي اعتبره اليونان أحد «الحكماء السبعة».

(3) عالم رياضيات و فيلسوف يوناني شهير تتلمذ على يد سقراط و تتلمذ أرسطو على يديه، و يعتبر مؤسس أكاديمية أثينا، أول معهد للتعليم العالي في العالم الغربي.

(4) و يُلقب بالساموسي، فيلسوف و عالم رياضيات يوناني، و صاحب

نظرية شهيرة في الهندسة تتعلق بالمثلثات.

(5) عن «القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥» لمحمد رمزي، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٤، و «الموروث من الحضارة المصرية القديمة» لـ أ.د. عبد الحليم نور الدين.

(6) حضارة مصر القديمة و آثارها لـ د. عبد العزيز صالح - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٢- هامش صفحة ١.

(7) حضارة مصر القديمة و آثارها لـ د. عبد العزيز صالح - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٢- صفحة ٨.

(8) في الحضارة الإغريقية كان أطلس -أخو بروميثيوس و إبيمثيوس- من الجبابرة الذين انضموا لكرونوس في الحرب ضد الأولمبيين الاثني عشر؛ فعاقبه زيوس -عندما انتهت الحرب بفوزه- بأن جعله يحمل قبة السماء بكاملها على كتفيه، و مع الوقت تحولت مع الموروث الشعبي لأنْ يحمل الأرض و ليس السماء.

(9) «اليهودية» و «المسيحية» و «الإسلام»، و هناك من يضم «الحنفية» لها، و إن كنا لا نصل لمفهوم قطعي واضح لها.

(10) لناصر سعد مقال هام في هذا الشأن بعنوان: «هل السومريّون من علّموا مصر والبَشريّة الكتابة؟ على صفحة: التاريخ بالعربية - Historia En Árabe على موقع Facebook:

https://www.facebook.com/Historiiaa/photos/a.
١٠٨١٢٣٤٦٤٢٥٣٦٧٧/٤٩١٨٩٩٠٨٥٨٧٦١١١/

(11) تقع في البلينا في محافظة سوهاج حاليًا.

(12) تقع في محافظة قنا حاليًا بين مدينة قنا و مدينة الأقصر، على الضفة الغربية، و تواجهها مدينة قوص على الضفة الشرقية.

(13) أنهت الولايات المتحدة الامريكية الحرب العالمية الثانية تقريبا عندما ألقت القنبلة النووية الأولى -و التي أسمتها الولد الصغير- على هيروشيما في اليابان في السادس من أغسطس عام ١٩٤٥؛ فتسببت في القضاء اللحظي على ما يقرب من ١٤٠٠٠٠ شخص، بخلاف الإصابات و التشوهات، و لكنها لم تكتف بهذا، بل ألحقتها بعدها بثلاثة أيام -في ٩ أغسطس- بقنبلة نووية ثانية -أسمتها الرجل البدين- على ناجازاكي أنهت حياة ما يقرب من ٨٠٠٠٠ شخص مما دفع الإمبراطور الياباني للاستسلام، و القبول بكل شروط الولايات المتحدة الأمريكية المهينة.

هناك من يقول إن هذا هو انتقام الولايات المتحدة لتدمير اليابانيين للأسطول الأمريكي في بيرل هاربور في ٧ ديسمبر ١٩٤١.

(14) حصلت البولندية الفرنسية العبقرية «ماري كوري» على جائزة نوبل مشتركة في الفيزياء مع زوجها «بيير كوري» عام ١٩٠٣ حين اكتشفا عنصري الراديوم و البولونيوم، لتكون بذلك أول امرأة تحصل على جائزة نوبل، و حصلت على نوبل أخرى عام ١٩١١ -بعد وفاة زوجها بعدة سنوات- و لكن في الكيمياء هذه المرة لدراستها على معدن الراديوم المشع، لتصبح الوحيدة التي تحصل على جائزتي نوبل في مجالين مختلفين، لا ينافسها إلا لينوس باولنج، الذي حصل على نوبل في الكيمياء و أخرى في السلام.

و لكن تعرضها المستمر للإشعاع أثناء دراستها للراديوم تسبب في إصابتها بفقر الدم اللاتنسجي، الذي كان سببا في نهاية حياتها عام ١٩٣٤.

(15) حادثة نووية إشعاعية كارثية حدثت يوم السبت ٢٦ أبريل من عام ١٩٨٦ في محطة تشرنوبل للطاقة النووية قرب مدينة بريبيات شمال أوكرانيا السوفيتية، مات فيها ٣٦ شخص، و تم إجلاء ما يقرب من ١٠٠٠٠٠ شخص من المناطق المحيطة به، و لا يزال القلق من نتائجها مستمر حتى الآن.

(16) «قصة الحضارة» لـ «ويل ديورانت»، طبعة مكتبة الأسرة عام ٢٠٠١، المجلد الأول ص ٣.

(17) قصة الحضارة» لويل ديورانت طبعة مكتبة الأسرة عام ٢٠٠١، المجلد الأول ص ١٢٢.

(18) «قصة الحضارة» لـ «ويل ديورانت»، طبعة مكتبة الأسرة عام ٢٠٠١، المجلد الأول ص ١٢٦.

(19) يمكنك مراجعة مقال: «هل السومريّون من علّموا مصر والبَشريّة الكتابة؟ لناصر سعد على صفحة: التاريخ بالعربية - Historia En Árabe على موقع Facebook:

https://www.facebook.com/Historiiaa/photos/a.
١٠٨١٢٣٤٦٤٢٥٣٦٧٧/٤٩١٨٩٩٠٨٥٨٧٦١١١/

لمزيد من التفاصيل.

(20) نعني: يونج و نظرية الوجدان الجمعي، و قد أرجع يونج -أيضًا- تفسير حلم السقوط الشهير- حيث يحلم الإنسان أنه يسقط من مكان مرتفع- لنوم الإنسان البدائي فوق الأشجار، و لهذا أورثنا نفس الخوف في لا وعينا من خلال الوجدان الجمعي.

(21) اكتشف ريتشارد لاكاي و تيم وايت عظام طفل ينتمي لهذا النوع عند بحيرة توركانا عام ١٩٨٤- إعادة قراءة التاريخ، د. ياسر شحاتة، الهيئة العامة للكتاب ٢٠١٤ ص ٢٢.

(22) فقد كانت الطبيعة شديدة الثراء في إفريقيا في ذلك الزمن.. و من غير المنطقي أن يتركها بحثًا عن الطعام؛ فقد كان متوافرًا بكثرة.. خاصة مع قلة عدد البشر في مطلق الأمر في ذلك الوقت.

(23) لعل أول دليل قاطع على استخدام النيران وُجد في جنوب إفريقيا، و يتأرجح بين العصر الحجري القديم الأوسط، و الأدنى بين ٧٠٠٠٠٠،و ٢٠٠٠٠٠ ق.م.، و إن وجد الأثريون في العديد من المواقع - مثل شرق إفريقيا و فلسطين و الصين- آثارًا من الطين الأحمر تحتاج لتكوينها لدرجة حرارة تتراوح بين ٢٠٠ و ٤٠٠ درجة مئوية، و ترجع لما يقرب من ١.٥ مليون عام، و لكنها لا تدل بشكل قطعي على استخدام متكرر للنار.

و تُعد الحضارة المصرية من أقدم الحضارات التي استخدمت النار بشكل موسّع لصناعة الفخار، و التعامل مع النحاس مما يسبق التأريخ بكثير.

(24) لعل أشهر أمثلتها هي أحفورة إنسان «بكين»التي اكتشفت في الفترة من ١٩٢٣-١٩٢٧، و اختفت في قصة طريفة خلال الاحتلال الياباني للصين في الحرب العالمية الثانية، و تسببت في ظهور اعتقاد أنها كانت مزورة في الأساس.

(25) من معهد ماكس بلانك للأنثروبولوجيا التطورية في ألمانيا.

(26) يتحدث عالم الوراثة سيرجي كاستيلانو بمعهد ماكس بلانك لأنثروبولوجيا التطور بألمانيا عن أبحاث عدة تثبت هذا التزاوج، و لعل

أبحاث الحمض النووي على أنثى النايندرتال التي اكتشفت في كهف بجبل أتلاي في سيبيريا تؤكد ذلك.

(27) أحدث بقايا النايندرتالوجدت في شبه جزيرة آيبيريا، و ترجع لثلاثين ألف سنة خلت.

(28) الأكرو ميجالي **Acromegaly** هو حالة مرضية تنشأ عن زيادة في إفراز هرمون النمو بعد البلوغ، و تتسبب في مشاكل عديدة منها تضخم الأطراف، و عظام الفك و تباعد الأسنان.

(29) المشرف على الأبحاث التي أجرتها جامعة تولوز على الكهف عام ٢٠١٠.

(30) الضغط على حجر باستخدام حجر آخر بغرض كسره، و الوصول لأطراف حادة في أحدهما.

(31) المدرسة المستقبلية التي كانت تعتمد على تكرار الشكل عدة مرات للتعبير عن الحركة.

(32) ترجمة: إيهاب عبد الحميد، دار ميريت.

(33) العميد الأسبق لكلية الآثار بجامعة القاهرة.

(34)فيلم المريض الإنجليزي **The English Patient** إنتاج عام ١٩٩٦ عن رواية لمايكل أونداتجي، من إخراج أنتوني منغيلا، و بطولة راف فاينس، كريستين توماس، و جولييت بينوش، حصل على الأوسكار لنفس العام.

(35) الباحثة إيمانويل أونوريه معهد ماكدونالد للبحوث الأثرية، و قالت تصريحهابعد مقارنة الرسوم الموجودة في الكهف بأيدي الأطفال حديثي الولادة في إحدى مستشفيات فرنسا.

(36) «باولا فارينا» في مقالها: «زهرة الكامونة في الفن الصخري لـڤالكامونيكا»، و «إيمانويل عناتي» في «ڤالكامونيكا عصور ما قبل التاريخ- دليل لحدائق الآلهة».

(37) قرية في جنوب غرب الدلتا بالقرب من قرية الخطاطبة، و تتبع إداريا مركز إمبابة التابع للجيزة.

(38) تقع حاليًا بالقرب من قاو الكبير في أسيوط.

(39) تقع حاليًا في قنا على الضفة الغربية من النيل، و تواجهها قوص من الناحية الشرقية.

(40) تابعة لمركز سمسطا في محافظة بني سوسف حاليًا.

(41) بالقرب من دمنهور حاليًا، و كان إلهها الرسمي «حورس».

(42) بالقرب من سمنود حاليًا، و كان إلهها الرسمي «أوزيريس».

(43) صا الحجر في كفر الزيات بمحافظة الغربية، و كانت إلهتها الرسمية «نيت».

(44) تل الفراعين في كفر الشيخ حاليًا، و كان لها ثلاثة آلهة: «وادجيت»، و «وبوات»، و «حورس الطفل».

(45) هناك اختلاف على مكانها حاليًا، و الأشهر أنها بالقرب من البلينا في سوهاج؛ حيث توجد مقابر ملوكها، و إلهها «خنت-أمنني» و «أوزير» في الجبانة.

(46) الكوم الأحمر حاليًا، و تقع بين إسنا و إدفو في محافظة أسوان، و كان إلهها «حورس».

(47) بين قنا و الأقصر، في محافظة قنا، على الضفة الغربية للنيل، وتواجهها قوص على الضفة الشرقية، و كان إلهها «ست».

(48) الفنتين حاليًا في أسوان، و كان لها عدة آلهة: «خنوم»، «ستت»، «عنوقيت»، «ست».

(49) إهناسيا حاليًا في بني سويف، و كان إلهها الرسمي «حرشف».

(50) يرى بعض علماء المصريات، على رأسهم «كورت زيتة»، و «ألكسندر موريه»، و «إدوارد ماير»، و «جيمس هنري بريستد» أن مصر القديمة مرت بتسع مراحل قبل أن تصبح دولة واحدة:

١- تجمُّع ممالك الوجه البحري في مملكتين: عنجت الشرقية، و عاصمتها قرب سمنود، و معبودها «عنجتي» -ربما كان الظهور الأول للمعبود «أوزير»- و بحدت الغربية، و عاصمتها قرب دمنهور، و معبودها «حور بحدتي».

٢- اتحد الشمال في مملكة واحدة عاصمتها «ساو»: «صا الحجر»: بسيون - الغربية، و معبودها الرئيسي «نيت»، و شعارها النحلة «بيت»، و تاجها الأحمر.

٣- اتحدت ممالك الصعيد، و عاصمتها «نوبت»: طوخ - نقادة - قنا، و معبودها «ست».

٤- حيث يرجح وجود صراع بين الجنوب و الشمال انتهى بسيطرة شمالية، و انتقلت بسبب ذلك العاصمة للشرق، و أصبح معبودها الرئيسي «أوزير».

٥- ثورة جنوبية انتهت بانفصاله، و عودته لعاصمته «نوبت»، و معبوده الرئيسي «ست».

٦- توحيد شمالي جديد لمصر، عاصمته «أون»: عين شمس: المطرية - القاهرة.

٧- انفصال جنوبي جديد بعاصمة سياسية جديدة: «نخب»: الكاب و عاصمة دينية «نخن»: الكوم الأحمر، و أصبح لهم التاج الأبيض، بينما أصبحت عاصمة الشمال السياسية «إبطو»: «بوتو»، و عاصمته الدينية «دب»، و معبودها الرئيسي «وادجيت»: الكوبرا.

٨- انتقلت العاصمة الجنوبية لمدينة «ثني»: «تينيس»: البربا في جرجا - سوهاج، أو البلينا - سوهاج، و منها الملوك «العقرب الثاني» و «نعرمر».

٩- أخضع حكام الصعيد كامل البلاد لسلطانهم.

(51) كان الإغريق يعتبرون كل من هو غير إغريقي بربريًا، و لعل أشهر من أعطاهم الإغريق لفظ البربر كانت شعوب شمال إفريقيا، خاصة أثناء صراع الحضارة القرطاجية بقيادة «هانيبعل» مع الحضارة الرومانية.

(52) هناك خلاف على نشأة هذا الإله، و هل كان موجودًا قبل البطالمة أم لا، و هل مَن دعا له هو الإسكندر أم بطليموس الأول أم الثاني أم الثالث، و لكننا ذكرنا الأشهر.

(53) نعتقد أن التجديدات الجديدة لجامع عمرو بن العاص يقوم بتعديل العواميد ليجعلها متشابهة، و هو تغييلار خطير على المستوى

الأثاري، لو صح حدوثه.

(54) هناك مؤرخون يرون أنه اشترى باب جامع السلطان حسن، و لم يأخذه دون مقابل كما هو شائع.

(55) عالم موسوعي، و طبيب عربي قرشي دمشقي مسلم ١٢١٣-١٢٨٨، له إسهامات كثيرة في الطب، و يعتبر مكتشف الدورة الدموية الصغرى، و أحد رواد علم وظائف الأعضاء «physiology»؛ حيث وضع نظريات يعتمد عليها العلماء إلى الآن، عُين رئيسًا لأطباء مصر، و يعتبره الكثيرون أعظم علماء وظائف الأعضاء في العصور الوسطى، ظل الغرب يعتمدون على نظريته حول الدورة الدموية، حتى اكتشف ويليام هارفي الدورة الدموية الكبرى.

(56) طبيب إنجليزي ١٥٧٨-١٦٥٧ يعتبر مؤسس علم وظائف الأعضاء عن طريق وصف الدورة الدموية الكبرى في جسم الإنسان، يعتبره العالم مكتشف حقيقة الدورة الدموية، وعمل القلب كمضخّة، و يعدونه أول دارس حقيقي لها منذ الإغريق مما يظلم مجهودات ابن النفيس، كما شارك هارفي في البحث والتحقيق عن المغناطيس .

(57) عندما شاهد جنود الحملة الفرنسية شكل العلامة الهيروغليفية شن- الدائرة المعقودة- و قد احتوت اسم الملك؛ فظهرت بشكل بيضاوي؛ لتتسع للاسم، وجدوا تشابها بينها و بين الخرطوشة التي يستخدمونها في أسلحتهم؛ فأسموها خرطوشة هي الأخرى.

(58) نعتمد في الكلام القادم على المعجم الوجيز (هيروغليفي- عربي) لسامح مقار طبعة١ لعام ٢٠٠٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(59) اسمه «يوحنا شفتشي»، لا نعرف عن حياته الكثير سوى أنه جاء لفرنسا عام ١٨٠٢، و كان «شامبليون» يقابله؛ ليتعلم منه في كنيسة «سان روش»، تحدث «شامبليون» عن ذلك في رسائله لأخيه، و التي أوردها «جان لاكوتور» في دراسته «شامبليون، حياة من نور»، و قد ذكره «أنور لوقا» في دراسته «يوحنا شفتشي معلم نابليون» في موسوعة «تراث الأقباط»، و ذكره «أندرو روبنسون» في دراسته «فك الشفرة المصرية».

(60) مما يقال عن «صلاح الدين الأيوبي» إنه قام بمثل ذلك، بأن هدم العديد من الأهرامات الصغيرة، و استخدم حجارتها في بناء القلاع الحربية،و إن كنا لا نجد دليلًا على ذلك.